ZIADEH

AL-'URUBAH FI MIZAN

2276
.9952
.393

2276.9952.393
Ziadeh
al-'Urubah fi mizan...

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 071970667

نقولا زيادة

العروبة

في ميزان القومية

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين
بيروت - لبنان

إهداء إلى الأستاذ توفيق حبيب
صديقي ورائد العلم للملايين
تحول اسمه إلى دار العلم للملايين
توفيق أبو علي

Ziadeh, Nicola A

نقولا زيادة

استاذ التاريخ العربي الحديث
بجامعة بيروت الاميركية

al-ʿUrūbah...

العروبة

في ميزان القوميّة

دار العلم للملايين

2276
.9952
.393

جميع الحقوق محفوظة

نيسان ١٩٥٠ – بيروت

المقدمة

•

الشاب العربي اليوم في حيرة من امره .

وكيف لا يحـــار وهو يرى القيم الانسانية في اضطراب ، والمبادىء العليا في احتراب ؟ كيف لا يحار وهو يرى ان دولاً قوية تجمع امرها على ان تشرد مئات الالوف من عرب فلسطين عن بلادهم ، وتحرمهم حق افتراش ارضهم ، والتحاف سمائهم ، ثم يقف مندوبو هذه الدول نفسها ، فيوقعون شرعة حقوق الانسان؟ كيف لا يحار وهو يرى هذا التناحر بين معسكرين يقتسمان العالم ، وكلّ يدعي انه يفعل ذلك باسم الانسانية ، وخُـــير الانسانية ؟ وكيف لا يحار الشاب العربي وهو يتطلع بمنة ويسرة ، فلا يرى حوله الا خيبة امل تتلو الاخرى في هـــذه المؤسسات الدولية العالمية التي خُلقت ، نظرياً ، لاحـــلال الخير في العالم ، لكنها تقوم ، فعلاً ، باحلال المصلحة الخاصة في المقام الأول في العالم ؟

ويبحث الشاب العربي حوله ، راغباً في التعرف الى اسباب حيرته ، ويمعن في البحث ، فيجد انه قد بلا ، في حياته التهذيبية الأولى ، نواحي من التعليم والتعلم ، جعلت منه « ثوباً ضم سبعين رقعة » . ويذكر انه اخذ ، في هذه المدارس الملونة المنوعة التي

دخلها ، نماذج من « التزوير الفكري » جعلته لا يتمكن من الحكم على الامور حكماً صحيحاً . ثم يرى نفسه فريسة لهذه الفلسفات الغربية التي تهجم عليه من كل صوب ، وكلّ منها قد يكون فيه خير لا يدريه تماماً ، وقد يكون فيه شر لا يدركه تماماً . فتدور رأسه ، ويقف حائراً ، وقد ينتهي به المطاف الى شر مستطير .

هذه المدارس والمعاهد ، وهذه الفلسفات ، وهذه الآمال الخائبة في المؤسسات والمنظمات العالمية ، وهـــذا الاحتراب في المبادىء العامة ، وهذا التناقض في نواحي الحياة كلها — كل أولئك وأمور أخرى غيرها ، تؤدي بالشاب العربي الى حيرة لست احسب انه يحسد حياته عليها .

وما الذي يجنيه العالم العربي من ذلك كله ؟

شباب في ازمة نفسية ، فمنهم الذي ضعف واستخذى فاصبح كريشة في مهب الريح ، فهو يميل يوماً شرقاً ويوماً غرباً ؛ ومنهم الذي تستهويه الاراء الغريبة ، فيصبح ، بسبب من هذا الاستهواء ، داعية لهذه النزعات . وهو لو اتيح له اساس من الفكر القوي قبل ان يُستهوى ، لما وقع فريسة لهذه الأمور . ومنهم الشاب الذي اصبح ، دون قصد سيء أو نية خبيثة ، يروّج لجماعات اجنبية لمجرد انه تلقى آراء هذه الجماعة ، او حمـــل مبادئها ، ابان تلقيه العلم في معاهدها . ومنهم الشاب الذي يعرف ان كل ذلك خطأ ، ويريد ان يهتدي ، ويريد ان يعمل ، ولكن حياته الأولى لم تهيئه لمثل ذلك . فيقعد عن العمل ، وتكون الخسارة خسارة العالم العربي ، اذ يكون قسم كبير من شبابه ، وهم عصبه وقلبه وعقله النشيط ، قعيدي

ضعف قد لا يكونون هم سببه ، ولكنهم يكونون قطعاً فريسته .

فهل ثمة من علاج لهذه الحال ؟

نعم . اقولها وكلي ثقة من ان العلاج الناجع متيسر، ومتيسر على مقربة منا . بل هو لا يعدو نفوسنا وحياتنا وتاريخنا . وما اقرب هذه الامور كلها الينا ، لو عقلنا .

نحن بحاجة الى درس انفسنا ، ودرس حاجاتها .

نحن بحاجة الى التعرف الى تاريخنا ، لان تاريخنا يوضح لنا حياتنا ، ويبين لنا حاجاتنا ، ويرسم لنا طريقنا، ويعين لنا خطتنا للعمل وسبيلنا في الحياة .

وقد يبدو ان في هذا القول مبالغة . ولكن تهمة المبالغة هذه تصدر عن قوم اعماهم الغرض ، فاخذوا ينتقصون من الحياة العربية والتاريخ العربي . فالدرس الذي ادعو اليه لتاريخنا ، هو درس اعمق مما عرفنا الى الآن . ادعو الى درس تاريخنا للتعرف الى حضارتنا وروحها ، ولفهم العناصر الخالدة فيها . ولوضع اصابعنا على ناحية القوة فيها . اقول ناحية القوة لأن نواحي الضعف أمْعنَ الناسُ في ابرازها، رغبةً في التشنيع ، وحباً في التبشيع ، خدمة لغرض ، او بداعي مرض .

فقد رموا تاريخنا بانه من صنع السيف ، وقالوا عن عقليتنا انها جامدة ، ووصفوا فكرنا بانه متحجر . ثم خلصوا من ذلك الى القول بان تاريخاً قوامه السيف ، وعقلية صفتها الجمود ، وفكراً سمته التحجر ، لا يصلح ابناؤهـا للحياة ، وليسوا جديرين بان يكون لهم كيان .

قالوا هذا ، وقالوا شراً من هذا.

ووقفنا نحن نسمع ، ونقبل ، بل وصل الأمر بالبعض منا الى أن آمن بذلك .

اما آن لنا اذن ان نعيد النظر في امر انفسنا ؟ اما آن لنا ان نقبل على تاريخنا ندرسه من جديد ، لنعرف منه ان مدنيتنا اتسعت في تاريخها الطويل للنمو ، وان ثقافتنا العربية عرفت التطور ، وان فكرنا قبلَ التدرج والتحسن ، وان عقليتنا تكيفت مع حاجات الزمن في هذه العصور الزاهرة التي مرت بها ؟

وهذا الاقبال على هذه الامور هو الذي يوضح لنا العقيدة التي يجب ان نؤمن بها ، والمبدأ الذي يجب ان نسير عليه ، والفكرة التي يجب ان نتبناها .

ونحن اذ ندرس هذا التاريخ ، ونقارن انفسنا بسوانا من الامم ، نجد اننا أمة لها تاريخها ؛ وعندما نزن انفسنا يتضح لنا اننا امة عربية لها وعيها الصادق ، وقلبها الخافق ، ولسانها الناطق . وستظهر هذه العروبة اوسع افقاً ، واعمق اسساً ، واقوى على غِيَر الدهر مما عداها . وستظل هذه القومية العربية أماً تقبل بوجود بنيات لها ، تكلأهن بعنايتها ، وتحيطهن بعطفها ، وتشملهن برعايتها ، لكنها تربأ بهن ان يُغرين على المروق ، او يُحملن على الشقاق . وهي في ذلك كله تحمل امانة الزمن ، لا يعتريها كلل او وهن . وهـــي هي العروة الوثقى لا انفصام لها .

جامعة بيروت الاميركية
نيسان ١٩٥٠

نقولا زيادة

من أعماق التاريخ

كانت القبيلة والعشيرة اول وحدة اجتماعية رئيسية انتظمت امورَ الجماعة كلها . فخضعت لسلطانها الشؤون السياسية والمعاشية والحربية ، وكان كل فرد من افراد هذه الوحدة يرضى بما اجمعت عليه قبيلته او عشيرته دون تردد . وكان افراد هذه القبيلة تجمعهم رابطة الدم والنسب ، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون انهم متحدرون من جدّ واحد ، فهم احفاده وسلالته . وقد اعتقدت بعض القبائل ان هذا الجد كان حيوانا ، [1] واعتقدت غيرها انه كان انسانا لكنه ارتفع الى درجة الابطال . وكانت قبائل اخرى ترى انها متحدرة من نسل إله . والقبائل المتوحشة هي من النوع الاول ، والقبائل اليونانية القديمة هي من النوع الثالث . اما النوع الثاني فخير مثل عليه القبائل العربية ، على نحو ما وصلت الينا اخبارها في عصور الجاهلية ، وعلى نحو ما نعرفه من شؤونها اليوم في مواطنها الاصلية .

واعتقاد افراد القبيلة الواحدة بوحدة الاصل او النسب [2]

(١) هذا هو المذهب المعروف باسم الطوطمية .

(٢) يلاحظ ان التواريخ البدائية للامم تعنى بتوضيح الانساب مثل اسفار التوراة وكتب الانساب اليونانية والعربية .

وبطهم بعضهم ببعض، فشعروا جميعاً بانهم «قوم» تصيبهم السراء والضراء على حد سواء . فالفرد منهم اذا دهمته مصيبة او نزلت به نازلة فزع الى قومه يستنجدهم ويستجير بهم ، والقبيل اذا راعه امر انتظر من كل فرد ان يدفع عنه الاذى ويقف دون من يريد به الشر . والجماعة كلها تتقدم الى عبادة إلهها مشتركة متحدة ، سواء اكان هذا الاله جدها او مجرد اله ترى فيه القوة التي تسيطر عليها.

هذا الشعور الذي نلمسه في هـذه العلاقة بين الافراد بعضهم ببعض وبين الفرد من الجهة الواحدة وقومه من الجهة الاخرى هو ما يمكن ان نسميه بالقومية . ومن هنـــا يتضح لنا ان فكرة القومية قديمة قدم الاجتماع البشري كله . اما ان هذا النوع من العلاقة كان يسمى « العصبية » فامر لا يقلل من قيمته ابداً .

وقد كانت هذه القومية والعصبية تسري على اولئك الافراد الذين يخلصون من قبيلتهم ويلجأون الى قبيلة اخرى « يدخلون » في حماها . ذلك انهم يصبحون جزءاً من « الكل » الجديد الذي اندمجوا فيه . فيشاركون الجماعة الجديدة في كل ما لها وما عليها. والشعور القبلي الذي يكتسبونـه عن طريق الولاء ، لا يقل قوة عن شعور الافراد الاصليين نحو قبيلتهم اي عن الشعور المكتسب من النسب . وقد فطن ابن خلدون الى ذلك فقال « من البين ان بعضا من اهل الانساب يسقط الى نسب آخر بقرابة اليهم او حلف أو ولاء او لفرار من قومه بجناية اصابها فيدعي بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال . واذا وجدت ثمرات النسب، فكأنه وجد لانه لا معنى لكونه من

هؤلاء او من هؤلاء إلاجريان احكامهم واحوالهم عليه وكانه التحم بهم . ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر . وما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين . ومتى وقعت المناصرة والنعرة عن طريق الولاء استغني عن النسب الطبيعي اذ النسب امر وهمي لا حقيقة له ، ونفعه انما في هذه الوصلة والالتحام » .

ومن المهم ان نذكر انفسنا ان هذا اللون من الشعور القومي هو غاية ما تصل اليه القبيلة البدوية المتنقلة الظاعنة . فانه لا مكان معين لها تستقر فيه فتشعر نحوه بعطف وحب ناشئين عن ارتباط مصالحها به ارتباطاً دائماً . ومن ثم كان ادب الجماعات المترحلة القومي ادب قبيلة وعشيرة لا ادب بلد مستقرة شؤونه ، مرتبة اموره . والادب اليوناني القديم والادب العربي الجاهلي من خير الامثلة على هذا النوع من الحياة . فالالياذة محشوة تضاعيفها بذكر هذه العواطف القومية القبلية اذ ان الصور التي ترسمها هذه الملحمة الكبرى تمثل الحياة اليونانية الاجتماعية والدينية للقبائل اليونانية في دور تنقلها المستمر وحروبها الكثيرة ومحاولتها الاستقرار ، كما تمثلها بعد ان استقرت واتخذت المدن مراكز للحياة ، والزراعة والتجارة اساساً المعاش . و« توكيديدس » يصور لنا قبائل اليونان في دور التنقل والرحيل في غير موضع من كتابه .

اما الادب العربي الجاهلي فيكاد يكون مقصوراً ، من هذه الناحية ، على ذكر مفاخر القبيلة والتغني بمحامدها وقص اخبار رجالها ووصف ظعنها ورحيلها فهو ادب بدوي عصبي قبلي قومي .

على ان هذا الدور من الحياة لم تلبث البشرية ان تخطته ، على اختلاف في اوقات حدوث هذا التخطي ، الى دور الاستقرار فسكنت الجماعة بقعة معينة ارتبطت مصالحها المعاشية بهـا ، فزرعت حقولها ، وتفيأت ظلال اشجارها ،وتجمعت حول ينابيع الماء فيها ، واقامت فيها لاهلها هيكلاً ثابتاً ، واستثمرت معادنها وحجارتها في الصناعة والبناء ،وعرضت في اسواقها مصنوعاتهـا ومتاجرها واحاطت موطنهـا بسور يحميه ويقي الجماعة غارة المعتدي . وهنا اتجه شعور الجماعة اتجاهـاً جديداً ، بالاضافة الى ما كان عندها قبلاً . وهذا الشعور الجديد هو حب المدينـة او القرية او مجموعة المدن التي اقامت فيها القبيلة . وهـذا ما يصح ان نسميه الوطنية او الشعور بحب الوطن . وهكذا ارتبطت القومية بالمكان ، ولكنها اقتصرت على رقعة صغيرة ضيقة بادىء الامر هي المدينة وارباضها . وهذا الشكل من القومية الوطنيـة هو الذي نعرفـه في تاريخ اليونان ، وفي اول دور من تصير المدن في الاسلام وفي العصور الوسطى .

فالمدينة اليونانية لم تكن منطقة سيادتها تتجاوز ، في الغالب ، بضع مئات من الاميال المربعة . وقـد كانت اسبارطة ، وهي اكبر هذه المدن جمعاء ، يسري سلطانها على نحو ثلاثة آلاف ميل مربع فقط . ولعل ضيق المساحة هذا يعود اليه الفضل في نشوء الروح الوطنية في المدن اليونانية . فقـد اتاح ذلك لليوناني الأسبارطي او الاثيني او الكورنثي او الميغاري ، ان يتعرف الى كل جزء من بلاده والى الجماعات التي تسكنها فأحب الارض

وسكانها وخيراتها وشرورها ومبانيها فعاشت في نفسه واصبحت معالمها جزءاً منه .

اما المدينة العربية في صدر الاسلام فقد كانت نقطة رئيسية تركزت حولها حياة سكانها ، وانتقلت عصبية القبيلة الجاهلية الى عصبية المدينة . فنحن نرى البصرة تتعصب على الكوفة والفسطاط تتعصب على القيروان . لكن هذه العصبية صُبغت بصبغة محلية ولم تكن كالذي عرفته المدينة اليونانية . لان المدينة العربية الاولى كانت جزءاً صغيراً من وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة شملت الامبراطورية العربية كلها . ومن ثم فلم تكن هناك وطنية ضيقة تقف عند حدود ارباض المدينة وبساتينها وضواحيها وقراها حيث ترابط جنودها وتقوم قلاعها وحصونها .

وفي العصور الوسطى ، بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٥٠٠ للميلاد، كانت المدينة وحـــدة اقتصادية وسياسية مستقلة في كثير من اجزاء اوربة . فقد كان ابناء المدينة الواحـــدة ، في عرف ما يصح ان يسمى اصول القانون الدولي ، شيئاً واحـــداً في نظر ابناء المدينة الاخرى ، حتى ان اي واحد من تجار مدينـــة في فلندرز كان يقبض عليه في لندن ويطالب بوفاء دين على احد ابناء مدينته . وكانت مصلحة هذه المدن تتضارب الى حد ان المدينة الايطالية ، كالبندقية مثلاً ، لم تكن تمتنع عن عقد محالفة مع خصوم جنوة ، الايطالية ، اذا رأت في ذلك مصلحة لها . والافراد الذين كانت تضمهم المدينة الواحدة كانوا يرتبطون برابط المصلحة الاقتصادية والسياسية ، ولكن لم يصلوا الى الدرجة التي

وصل اليها اليونان ، هذا مع انه لم تكن ثمة رابطة سياسية اكبر تضمهم وتجمعها في مثل عليا مشتركة كما كانت الحالة في العالم العربي .

ويجدر بنا هنا ، وقد اشرنا هـذه الاشارة الموجزة الى فكرة القومية والوطنية القبلية والمدنية ، ان نلقي نظرة سريعة الى العالم الشرقي القديم لنرى ما وصل اليه في هذه الناحيـة . والذي نستطيع ان نقرره ، بادىء ذي بدء ، هو ان الجماعات التي تمكنت من تكوين وحدات سياسية كبيرة ، كان من المنتظر لها ان تتأصل فيها فكرة القومية والوطنية . فهي قـد اتحدت سياسياً تحت سلطان ملك واحد ، مثـل مصر وأشور ، واتحدت مصالحها الداخلية والخارجيـة ، وخرجت من ديارها في فتوحها ، تعبر عن قوة متحدة . ولكن امرين اضعفا ، أصلا ، هذا الشعور وحالا دون نضجه : الاول ان الدين لم يكن واحدا لكل اجزاء البلاد ، والثاني ان الحكم كان فيها مستبدا مطلقا . واذا تذكرنا ان الدين كان له في العالم القديم شأن كبير في الحيـاة ، استطعنا ان ندرك الاثر الذي يتركه تباين العقائد في وقف نمو هذا الشعور الوطني العام . اما الحكم المطلق فقد جعل كل شيء في البلاد خاضعا لرغبة الملك الذي كان يهيمن على السياسة العـامة ومقدّرات الافراد . وما لم يشترك الناس جميعاً في فهم الاسس التي تقوم عليها مصالحهم والمبادىء العامة التي تبنى عليها اعمالهم ، لا يستطيعون ان يولوا هذه المسائل اهتمامهم الفردي ، ومن ثم لا يمكنهم ان يشعروا بانها لهم . وساعد على هذا الامر ان المعرفة ،

على اختلاف انواعها ، كانت وقفا على فريق من الناس دون آخر واقتصرت على طبقة دون غيرها . وفي اغلب الاحوال كانت هذه الطبقة هم رجال الدين الذين احتكروا العلم لانفسهم ، فظل بقية الناس يعمهون في الضلال ، فبعدت الشقة بينهم وبين فهم الامور فهما صحيحا ، فشعروا انهم مكلفون بالقيام بواجبات مفروضة عليهم دون ان يشعروا بارتباطها بهم افراداً وجماعات صغيرة تتكون منها الوحدة الكبرى .

ونحن اذا اردنا ان ندلل على صحة هذا الامر وجدنا ما نريد حتى في التاريخ الحديث ، في الروسيا القيصرية . فالروس الذين لم يكونوا يشاركون القيصر وبطانته فَهْمَ السياسة العامة والمسائل المتصلة بحياتهم كانوا يحسبون انفسهم مسخرين للسلطان القوي ولا يرون هم في ذلك مصلحة قط ، فلم يتمكن فيهم شعور قومي وطني يشمل الشعب بأكمله .

على اننا ، ونحن نقرر هذا ، لا نريد ان نمر بمصر القديمة دون ان نشير الى حادثة فردية فريدة في بابها في تلك العصور في قصة سنوحيت . فر هذا الرجل من مصر في القرن العشرين ق . م . لانه اطلع على سر خطير من اسرار الدولة ، وعرف انه ان بقي وشاع امره قتل . والتجأ سنوحيت الى سورية الجنوبية وعاش بين قبائلها وأصهر اليهم واحترم وأكرم . لكن في اواخر ايامه عاوده الحنين الى الوطن ، وبلغ الملك خبره ، فعفا عنه واستدعاه . وعاد سنوحيت الى مصر ، وقد خلف لنا صورة جميلة لشعور رجل نحو بلاده وتحرّقه الى العودة اليها .

كان من الطبيعي ان يتطور الشعور الوطني الذي لمسناه في المدينة اليونانية القديمة بحيث يشمل قطراً واحداً او بلاداً كاملة ترتبط جماعاتها ببعض برابط المصلحة او الدين او اللغة او الادب او التاريخ او بكل هذه الروابط مجتمعة ، لولا ان ثلاث حوادث تاريخية هامة غيرت هذا الاتجـاه . هذه الحوادث هي قيـام الامبراطورية الرومانية وانتشار النصرانيـة في اوربة وظهور الاسلام .

كانت الامبراطورية الرومانية غاية التنظيم السياسي الذي وصـل اليه العالم القديم . فقد فتحت رومة غرب حوض البحر المتوسط وشرقه ، وضمت كل الشعوب القاطنة على شواطئه الى سلطانها . فكانت القبائل التابعة لها متباينة اصلا ، مختلفة لغة ، متباعدة صقعاً ، ليس ما يربطها ببعضها ببعض الا هـذا الحكم والتشريع العام . واذا اضفنا الى ذلك هذا التاريخ المختلف لكل من هذه الشعوب ، ادركنا الهوة التي كانت تفصل بين الوحدات التي كونت الامبراطورية الرومانية . فشرقها كانت له ثلاث لغات على الاقل : اللاتينية وهي لغة الحكم والسياسة والقانون ؛ واليونانية وهي لغة العلم والادب والفلسفة ، واللغات المحلية التي كان يتكلم بها أهل الاقطار المختلفة من آسية الصغرى شمالا الى مصر جنوبا . وغرب البحر المتوسط كانت له لغتـان : اللاتينية للحكم والادب ، واللغات المحلية التي كانت وسيلة التخاطب والتفاهم بين سكان فرنسة واسبانية والمغرب الاقصى فيما بينهم .

كان ضم هذه الشعوب والاقطار عملا اداريا ضخما وتنظيما

سياسيا له آثاره ، الصالح منها والضار ، لكنه من الجهة الاخرى لم يستطع ان يوجد روحا نستطيع ان نسميها « قومية وطنية » . لقد كان ثمة شيء من هـذا في ايطالية نفسها ، لكن هذا الشعور لم يتعد ايطالية بل لم يتح له ، حتى فيها نفسها ، ان يتبلور ويصقل بحيث يطلق عليه اسم الدولة الوطنية او القومية . ذلك لان ايطالية نفسها اصبحت ، مع مرور الزمن ، جزءاً من الامبراطورية مساوياً لأي جزء آخر . وكل الذي نستطيع ان نقوله هو أن الاحوال السياسية والاقتصادية والحربيـة وصلت بالامبراطورية الرومانية الى ان اصبح كل رجل مقيم داخل حدودها يعتـبر « رومانيا » من حيث رعويته (تم هذا سنة ٢١٢ م) . لكن هذه الناحية الرسمية لم تجعل من الناس الذين اقاموا داخل الحدود « رومانيين » وطنيةً وقومية . لان الناس لا يعتنقون الافكار والآراء القومية والوطنية بحكم الاوامر الرسمية والنشرات الملكية والقرارات الوزارية .

وإذن فهذا الشعور الوطني القومي الذي رأينـاه ينمو في المدينة اليونانية ، والذي أملنا له ان ينبعث منها فينتشر في القطر كله ويشمل سكانه كلهم ، نراه يقف نموه وتطغى عليـه فكرة عامة لم تتأصل فيه . ولسنا نشك في انه كان بين الفكرتين بعض الخصومة لكنها كانت خصومة هادئة لان النزاع الفكري سبيله الكتابة والقراءة ، ولم يكن هذان الامران متيسرين لأهل العالم القديم .

ومن ثم فنحن لا نلمس الا القليل من آثار الخصومة بـين

« الوطنية » و« الرومانية الامبراطورية ». هذا اذا تركنا الحروب والثورات ضد الحكم الروماني جانباً .

والنصرانية ظهرت في الشرق وانتشرت فيه اولاً ثم عمت الغرب . بدأت دعوةً خاصة في السر والخفاء ثم لم تلبث ان ذاعت وكثر معتنقوها ، واشتركت الهيئات الرسمية في نشر مبادئها ونفوذها . فعمت اوربة كلها بعد ان سيطرت في غربيّ آسية وشماليّ افريقية . والنصرانية تعتبر الناس جميعاً ابناء اله واحد ، فلا فرق بين رجل وآخر ما دام الاثنان يعتنقانها ، بقطع النظر عن القطر الذي يسكنه كل منهما . وإذن فكان الناس يعتبرون انفسهم تابعين لفكرة واحدة عامة وكنيسة جامعة ، لا فرق بين فرنسيهم والمانيهم وايطاليهم . وفي هذه الحالة نجد ان الجماعات تتمركز مثلها العليا واغراضها واهدافها حول امور شاملة للكل ، وتعاليم اساسها وحدة الشعوب والأفراد وانضواؤهم جميعاً تحت قيادة الكنيسة . وهذا الاتجاه في تفكير اهل العصور الوسطى مثلاً يحول دون نشوء روح قومية وطنية . لان المرء يعتبر كل سكان العالم — الذين يشاركونه عقيدته — قومه ، ويرى كل بلد يقطنه هؤلاء الناس وطنه .

وقد وافق انتشار النصرانية في اوربة سيطرة اللغة اللاتينية وهي إرث من الامبراطورية الرومانية ادارة وتشريعاً . فقد اتخذت الكنيسة الغربية اللاتينيةَ لغتها ، فنشرتها في مدارس الاديرة وكتبت بها كتب الدين وصارت لغة الادب والعلم والتجارة . وهكذا كان للناس جميعهم دين واحد ولغة واحدة .

وهذه اللغة الواحـــدة زادت في ارتباطهم بعضهم ببعض ، فلم يشعروا بالفرق فيما بينهم .

لكن يجب ان نذكر أن هذه اللغة اللاتينية كانت لغة فريق من الناس ، لا أكثر ولا أقل . وكان هذا الفريق يمثل طبقـــة متعلمة قليلة العدد ذات رياسة ، دنيوية او دينية . امـا الشعب فقد ظلت قصصه وآراؤه وآدابه وتقاليده الخاصة به تتخذ للتعبير عن نفسها سبيـــلاً يختلف عن سبيل اللاتينية ، فشعراء الحب الفرنسيون او الاسبانيون او الالمـــان والشعراء القصاصون والمغنون لم يكونوا يستعملون اللغة اللاتينية للغناء او القصص ، بل كانوا يغنون ويروون وينشدون بلغات محلية هي التي كان جمهور الفلاحين وصغار الملاكـــين والتجار والصناع يفهمونها ويطربون لها وتثير ما كمن من عواطفهم وتهيج نفوسهم . وفي هذه اللغات المحلية نجد اساس اللغات الحديثة ، وفي تطورهـا ، كما سنرى ، نلمح تطور الآداب الوطنية القومية .

اما الاسلام ، وهو العامل الثالث الذي يجدر بنا ان نبحث عنه ، فقد انتشر له سلطانان في وقت واحد : الاول سياسي والآخر ديني . ولما كان الاسلام دين اخوة عالمية ، لا فرق فيـــه بين المؤمنين الا بالتقوى ، فقد صار اتباعه ، من الناحية الدينيـــة ، اخواناً تربطهم رابطـــة واحدة ، على تباعد اصقاعهم وتباين مناهج حياتهم واختلاف سبل معاشهم . فلم يكن من الممكن لهذه الجماعات التي لهـــا اهداف متفقة ورئاسة واحدة ان تختلف اتجاهاتها السياسية . لكن لما انحسر سلطان الاسلام السياسي عن

بعض الاقطار ، مثل ايران ، وظل سلطانه الديني هناك ، اصبح العالم الاسلامي نوعين – الواحد منه ، مثل ايران ، مسلم وله حكومة من اهله فارسية ، والاخر ، مثل العراق وسوريا ومصر، مسلم وحكومته عربية . وهنا نرى ان التطور الذي اصاب الاقطار الاسلامية من الناحية القومية يشبه ، الى حد كبير ، ما اصاب اوربة النصرانية . هذا مع اختلاف في العوامل والنتائج التي ترتبت عليها ، كما سيتضح ذلك من سياق البحث .

وعصر النهضة الاوربية، وهي التي يسميها ابناؤها بالرنسانس، هو نقطة الابتداء في عودة القومية والوطنية الى الظهور ، بعد ان وقفت اجيالا طويلة . ذلك لان النهضة الاوربية ، عندما ننظر اليها نظرة صحيحة ، نجد انها كانت تقوم على ثلاثة امور ، اولها التحرر ، وثانيها التعرف الى النفس ، وثالثها التعبير عن النفس المكتشفة حديثاً . فمم تحررت اوربة في عصر النهضة ؟

تحررت ، او حاولت ان تتحرر ، من سلطان الكنيسة القوي المسيطر على الفكر ، وتحررت من سيطرة اللغة اللاتينية التي كانت تستبد بسبل التعبير عن الافكار . والذي يتحرر من ربقة سلطان ينتقل حالا الى محاولة التعرف الى نفسه ، والبحث عن روحه : يحاول ذلك الافراد مستقلين وتحاوله الجماعة متضامنة . ومتى اهتدت اليه ، او الى بعضه ، تلا ذلك الخطوة الطبيعية في الطريق وهي الرغبة في التعبير عن هذه النفس التي اكتشفها الافراد والجماعة . وقد اتخذ التعبير في عصر النهضة كل السبل لتوضيح ما وصل اليه الناس . فالتصوير والنحت والقصص والشعر والعلم والمسرح – كل

اولئك وغير اولئك ، لجأ اليه مختلف الافراد للافصاح عما اصبح يخالجهم من شعور او ما تنبض به قلوبهم من احساس او ما يجول في عقولهم من آراء . وهذه كلها تركت اللغة اللاتينية جانباً واستعملت ، في غالب الاحيان ، اللغات المحلية ، التي كان المغنون والقصاصون يستعملونها قبل ذلك بقرون . وعندها اصبحت الآراء الجديدة والافكار الثائرة والأدب القوي في متناول كل الناس ، بدل ان تقتصر على فئة قليلة وطبقة محدودة . وادرك الجمهور الكبير انه شيء ، ورأى نفسه واضحةً امامه مجلوة له . فاحب كل ما يمت اليها بصلة ، وشعر بان ثمة فرقا بين صقع وآخر ، لان آمال الناس وقصصهم ولغاتهم وآراءهم تختلف بين بلد وبلد .

وهذا التحرر الذي بدأ في عصر النهضة وما رافقه من محاولة التعبير عن النفس باللغة الوطنية ، اساس ما نشأ في اوربة فيما بعد من شعور بالوطنية والقومية .

الدولة والقومية

« انكلترة وفرنسة »

•

نعرض الان لناحية من تاريخ الفكرة القومية في اوربة كانت فيها الدولة المركزية المنظمة اساسا لقيامها وسبيلا لتقويتها. وخير مثل يمكن ان يقدم في هذه المناسبة هو الاثر الذي تركه استقرار الحياة السياسية في انكلترة وفرنسة [1] في اواخر العصور الوسطى في ايجاد شعور قومي وطني في اهل البلدين .

لسنا هنا في معرض التأريخ لذينك البلدين في تلك العصور ولكننا نريد ان نشير الى حوادث التاريخ التي اثرت في الفكرة . فالذي يجب ان نذكره قبل كل شيء ان انكلترة خرجت من القرن الحادي عشر للميلاد وهي وحدة سياسية . وفي القرن الثاني عشر وجد النظام القضائي فيها على يد الملك هنري الثاني ، وكان القصد من هذا العمل مركزة القضاء للضرب على ايدي اصحاب السلطة المحلية . وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر ظهر البرلمان الانكليزي بقوته وعمل على توحيد السياسة الخارجية والادارة

(١) هذا الاستقرار نسبي اذا قورن بالمانية وايطالية مثلا .

الداخلية للدولة بالاشتراك مع الملك ، او بارغامه على ذلك عند الحاجـــة . والقرن الخامس عشر يمثل في تاريخ انكلترة فترة الاستقرار التي تأصلت فيها جذور هذه التنظيمات المختلفة في التربة الانكليزية، وبدا أثرها في النشاط الاقتصادي، التجاري والصناعي، الذي عرفته البلاد في خاتمة العصور الوسطى واوائل الحديثة . فاستطاعت انكلترة ان تقبل بذور النهضة الحديثة وتغرسها فتؤتي ثمرها اليانع في عصر الازدهار القومي .

وقد تكون فرنسة تأخرت عن انكلترة قليلاً حتى حصلت على وحدتها كاملة ، لان الاخيرة هذه كانت تملك جزءاً من تلك . لكن الملك الفرنسي ، منذ القرن الثاني عشر ، صار شديد العناية بحصر السلطان في يده في كل ما ينضم اليـــه من الاقطاعات او الامارات بحيث اصبح من الطبيعي ان يلتفت الناس الى باريس ، عاصمة الملك ، كلما اعوزتهم الحاجة الى امر من الامور .

بعد هذه اللمحة الى البلدين نرجع الى حديثنا الاصلي لنتتبـع العوامل التي ادت الى قيام فكرة القومية في هاتين الدولتين في تلك الايام .

واول ما يبرز امامنا هو اللغة التي لجأت اليها الدولة المركزية في نقل اوامرها ونظمها الى افراد الشعب الذي ترعى شؤونـه . ففي انكلترة كان امام الحكومة ثلاث لغات : اللاتينية ، التي كانت قد خسرت المعركة خسارة عامة قبل القرن الرابع عشر ، والفرنسية ، التي كانت لغة النورمان الفاتحين ، واللغة الانكليزية التي كانت سبيل الاتصال بالشعب . وقد كانت الفرنسية لغـــة

البلاط [1] والبرلمان بادىء ذي بدء . لكن في السنة ١٣٦٢ نجد ان البرلمان استعمل اللغة الانكليزية في اجتماعه [2] وكان هـذا انتصاراً حاسماً للغة الوطنية ، وآخر خطوة في المرحلة التي كانت قد بدأت قبل ذلك باجيال : اذ كتب «شوسر» بها قصص كنتربري ، وكانت القوانين العامة مكتوبة بها .

وكان من الطبيعي ان تغلب واحدة من اللهجات الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها على القطر فتوحد وسيلة التعبير الفردية . وهنا نلحظ ان انكلترة تسود فيها لهجة مركز الحكومة ورجال الاعمال واصحاب الحل والعقد وهي اللهجة التي جاءت من الاجزاء الشرقية الوسطى . اما فرنسة فقد غلبت عليها لغة دويل [3] . ولما كان الامن عندئذ مستتباً في البلدين فقد كثر تنقل الناس وسهل على هاتين اللهجتين ان تصبحا لغتي انكلترة وفرنسة على الترتيب . وبانتصارهما توحدت الثقافة في كل من البلدين ، لان الثقافة صنو للغة وتبع لها ، واللغة وقف عليها .

وثمة امر ثان يبدو لنا كبير الاثر في تطور الشعور الوطني القومي في ذينك البلدين هو شيوع مجموعة واحدة من الشرائع في القطر . وبذلك يتوحد التفكير القانوني والنظم القضائية . وقد اشرنا الى ان شيئاً من هذا كان قد بدأ في ايام هنري الثاني

---

(١) منذ الفتح النورماندي سنة ١٠٦٦ م .

(٢) ذكر فرواسار ان البرلمان استعمل اللغة الانكليزية لان الشعب لا يحسن فهم اللغة الفرنسية .

(٣) Langue D'oel

في انكلترة [1] . وقد استمر هذا حتى بلغ غايته على توالي الايام . والذي نود ان نلفت اليه النظر في هذه المناسبة هو ان توحيد الشرائع في قطر ما يُشعر اهله بانهم جماعة مستقلة تختلف عن غيرها من الجماعات التي تعتمد على ما يغاير شرائعها وقوانينها وقضاءها . ذلك لان هذه كلها تشمل مجموعة من العادات والتقاليد ذات مساس بالحياة الفردية الخاصة ، فكلما شملها التوحيد زاد اثرها في ربط الافراد بعضهم ببعض بحيث يتميزون عن غيرهم كجماعة كبرى .

والدولة السياسية الموحدة تسهل على الناس رعاية مصالحهم الاقتصادية - زراعية كانت ام صناعية ام تجارية - في طول البلاد وعرضها ، وتيسر لهم توحيد جهودهم في هذا الاتجاه . فيترتب على ذلك نشوء سياسة اقتصادية موحدة ، ونظام اقتصادي متفق في وجهته العامة . وهنا تعمل السياسة والمصلحة في توحيد الشعب وتوجيهه ، فيزداد شعوره بالفرق بينه وبين الشعوب الاخرى . وهذا الامر يبدو لنا واضح الاثر بين المعالم اذا تذكرنا ما كانت عليه وجهة النظر السياسية والاقتصادية العامة في كل من انكلترة وفرنسة في أواخر العصور الوسطى وأوائل الحديثة . فبينما نجد الاولى مصدر ثروتها المشتركة في تجارة الصوف وما يتفرع منها وطريق اتصالها المشترك بالعالم الخارجي هو البحر ، تتجه فرنسة نحو تنمية زراعتها واراضيها وانشاء طرق المواصلات

(١) كان الانكليز دائماً يبدون اشمئزازهم من القوانين الاجنبية المبنية على اسس رومانية .

البرية التي تربط جميع اجزائهـــا بباريس ، وتكثر فيها الاسواق الموسمية لبيع ما تنتج ارضها والمقايضة بذلك مع مـــا تحمله اليها قوافل التجارة مع جاراتها ومن غيرها .

والدولة في تشجيعها هذه الامور كلها ، بما تنشر في القطر من أمن وحماية ، وما تعنى به من بعض التنظيم للجهود ، تساعد على نشر ثقافة تتسق وهذه الحياة الجديدة . وقد كان التحرر الذي عرفته بعض البلاد الاوربية من ربقة الكنيسة واللغة اللاتينية اقوى في انكلترة وفرنسة منه في البلاد الاخـــرى . واقتضت احوالها ان تنتقل شؤون التعليم والثقافة الجديدة من ايدي رجال الدين الى ايدي العلمانيين . وكانت الدولة ، وخاصة القوية منها ، تشجع هذا ، وتعمل على مساعدة القائمين بهذه الحركة ، وهذا يمهد للاراء الجديدة والافكار الحديثة سبل الانتشار في القطر . وتكون هذه مصبوغة بصبغة الحياة التي اعتادتها البلاد ، فينشأ ادب يصور حياة الناس واحساسهم وشعورهم . وهذا الامر نستطيع ان نلمس اثره في الازدهار الادبي الفني في انكلترة اوائـــل القرن السابع عشر ، وفي الحياة الفكرية الفرنسية في وقت قريب من ذلك .

ويتحتم علينا هنا ان نشير الى أمر على غاية من الاهمية ، ونعني به الحروب المعروفة بحروب المئة سنة بين انكلترة وفرنسة والتي شغلت القومين من اواسط القرن الرابع عشر الى اواسط القرن الخامس عشر . هذه الحرب نشبت بين دولتين كانت قد توحدت كل منهما واشتبكت مصالح الافراد في كل منهما ببعضها ، فكان أثرها ان قوت الروابط بين الانكليز كما متنت الاسباب بـــين

الفرنسيين . وانفجر المرجل الوطني القومي فيها فطغى على كل ما عداه من الوان الشعور ، وتبلور عطف الانكليزي على انكلترة والفرنسي على فرنسة . وليس عبثاً ان تعتبر الرواية الفرنسية قيام جاندارك ، فتاة اورليان ، وقت ولادة الامة الفرنسية . ولم يكن شكسبير مبالغاً لمـــا اعتبر معركة اجنكور [1] مظهراً للوطنية الانكليزية وجعل هنري الخامس اول ملك وطني من ملوك بلاده .

ويتبع هذا العامل في قيمته الحروب التي دارت رحاها بين انكلترة واسبانية وانتهت بمعركة الارمادا [2] . فاثر هذه — مثل أثر تلك — انها ايقظت في الانكليزي الشعور بأن ثمة فرقاً بينه وبين الفرنسي والاسباني ، كما اشعرت هذين بانهما غيره . وهكذا اوجدت هذه الحروب موضوعاً جديداً للشعراء والادباء ، فتغنوا ببطولة رجالهم ووصفوا شجاعة المحاربين من اهـــل بلادهم . وكان هذا الذي كتبوه وصوروه يسهل نقله الى كل الناس لانه مكتوب باللغة التي يفهمها كل فرد منهم . ولولا أن الدولة كانت قد سيطرت على كل موارد البلد وسيرت رجاله في جهة واحدة لما امكن لهذه الاحداث ان توقظ هذا الشعور الوطني .

وكان آخر ما أدته الدولة في سبيل تنمية الشعور القومي في انكلترة وفرنسة هو انها جعلت الكنيسة في هذين القطرين كنيسة وطنية ، وخاصة في الاولى منهما ، فقد سبقت الثانية بمدة طويلة . ذلك ان صيرورة الكنيسة وطنية كان معناه القضاء على آخر مـا

(١) سنة ١٤١٥ في حرب المئة سنة ، انتصر فيها الانكليز .

(٢) ١٥٨٨ ، انتصرت فيها انكلترة على اسبانية .

يربط الناس بغيرهم كأفراد ، واتمام العملية التي من شأنها ان تميز الجماعة الواحدة عن الاخرى . اذ ان معنى هذه الحركة هو ان تستعمل اللغة الوطنية في الكنيسة ايضاً ، وهذا ما رمى اليه المصلحون الدينيون في مطلع العصور الحديثة .

ونحن اذ ننظر الى هذه المسائل التي عرضناها – توحيد اللغة وتوحيد الشرائع وتوحيد المصلحة والثقافة الجديدة والحروب وجعل الكنيسة وطنية – ونذكر أثر الدولة فيها كلها ، يتضح لنا الى اي حد نقلت هذه الامور الجماعة من الفكرة العالمية التي ورثتها عن العصور الوسطى [1] الى الفكرة القومية الجديدة . فقد اصبحت الجماعة التي تسكن بلداً واحداً تشعر انها تتكون من افراد متشابهين فيما بينهم ومختلفين عن غيرهم ، اي انهم « أمة » لهم غايات وآمال ومثل عليا مشتركة مرتبطة كلها بقومهم ووطنهم .

(١) كانت هذه بدورها قد ورثت فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة الجامعة واللغة اللاتينية .

فلسفة الفكرة القومية

•

لا يتسع المجال هنا لدراسة الفكرة القومية وتطورها ، لكننا نرى انفسنا مضطرين الى الاشارة الى هـذه الناحية قبل ان ننتقل الى دراسة الدولة التي هي نتيجة لانتشار فكرة القومية بين افراد الشعب .

ومن الممكن ان نجد في كتابات عدد كبير من المفكرين في العصور الحديثة اشارات الى القوميـــة والوطنية مثل مكيافلي وهوبز وغيرهما . لكن المفكر الذي يرجع اليه الفضل في توضيح الاسس التي تقوم عليها الوطنية هو روسو .

كان اساس نظرية هوبز ان الدولة قوامها امران : المصلحة الفردية اولا والخوف من تضارب هـذه المصالح في المجموعـة التي تتألف منها الدولة ثانيا . وكان عمل الدولة ، في رأيه ، هو التوفيق بـــين المصالح المتضاربة وتأمين السلام للساكنين في كنف الدولة . ولن يتم هذا الا اذا كانت السلطة كلها بيد الحكومة .

وقد رأى روسو أن هـــذه الدولة التي ارتآها هوبز ينقصها

الوحدة الادبيـة (الخلقية) ، التي كانت في رأيه (روسو) صفة ضرورية الوجود في الهيئة المشرفـــة على شؤون الناس والمهيمنة على امورهم .

فما هي العناصر التي تتألف منها هذه الوحدة الادبية (الخلقية) وما هي الاحوال التي تيسر وجودها ؟ وقـد كان جواب روسو على هذا بأن السعي وراء هـدف مشترك هو الامر الذي يكسب الجماعة او الدولة هذه الصفة الخلقية ، على ان يكون الهدف المشترك هذا هو خير جميع الافراد الذين تتكون الجماعة منهم ، وعلى ان تكون الارادة العامـــة هي التي تعين السبيل . فالوحدة الخلقية المرجوة هذه تتم بارادة عامـة للجماعة الحرة بحيث ترمي نحو الخير للجميع . وعندها يرتبط الافراد بعضهم ببعض بدافع الاخلاص العـام لا بدافع الخوف .

ويترتب عـــلى هـذا ان نسأل انفسنا مـع روسو عن الاحوال التي تيسر لمثل هـــذه الجماعة ان تنتظم نفسها قوة . وهنا يسعفنا روسو بالجواب . فهو يرى انـه من الضروري توفر شرطين لقيام مثل هذه الجماعة التي نطلبها . الاول ان تتوفر بين افرادها الشؤون المشتركة بحيث يرون انها تستحق ان يقدموها على منفعتهم الخاصة . والثاني ان يكون القانون الذي تسير الجماعة بموجبه من وضعهـا . ومما قاله في توضيح الامر الاول : « اذا كان تصادم المصالح الخاصة قد جعل قيام الجماعة ضروريا ، فان اتفاق هذه المصالح هو الذي جعل قيامهـا ممكناً . فالرباط الاجتماعي هو نتيجة لوجود العنصر

العام المشترك في هذه المصالح المختلفة . فلو لم يكن ثمة نقطة تلتقي كلها عندها لما امكن وجود الجماعة . وحكم الجماعة يجب ان يكون اساسه الوحيد هذه المصلحة العامة المشتركة . »

اما بشأن الامر الثاني فيرى روسو أن القانون يجب ان يضعه الشعب على اعتبار انهم افراد هم قوام الهيئة الحاكمة . وعندها تكون الشرائع من وضع جماعة حرة فرضتها على نفسها بمحض ارادتها وهي تتمتع بحريتها الادبية .

*

يتضح لنا من هـذا الذي لخصناه ، ومن اشيـاء اخرى يضيق المجال عن تتبعها ، أن روسو كان يرى أن العلاقات بين الفرد والجماعة اساسها شيئان : المصلحة العامة والاشتراك في تقرير الامور . وهـذا هو الذي سماه روسو الوطنية . وهذه الوطنية تشمل الجماعة السياسية ، بحيث تكون ايماناً عميقاً تتأثر به حيـاة المواطن فتصبح عواطفه ومسؤوليته الخلقية ومصلحته الشخصية وحتى محبته لنفسه مرتبطة بهـا ومعتمدة عليها . ويختم تحليله لهذه المسألة بقوله : « ومن المؤكد ان اعجب ما ظهر من الفضائل كان من نتاج الوطنية — حب الوطن . »

وهنـا نضع اصبعنا على جوهر الفكرة القومية . والذي خرجنا منه ، في حديثنا عن روسو ، أمران اولهما ان هذا الخير العام الذي تناوله لم يقصد به الناحية المادية وانمـا عنى به الوعي او الادراك بان هناك ارثاً مشتركاً من الماضي وواجباً مشتركاً

للمستقبل . فقد قال : « ان عبقرية الشعب وشخصيته وأذواقه وآدابه انما تتألف من عادات وتقاليد قوية . وهذه هي التي تشعر الشعب بوجوده وبماهيته وتميزه عن غيره ، كما انها هي التي تملأه بالوطنية القومية التي تعتمد على عادات لا يمكن تغييرها .

واما الثاني فخلاصته أن القول بان السلطة يجب ان تكون معبرة عن الارادة العامة معناه الديمقراطية وتقرير المصير . إذ لا سبيل الى تحقيق الوطنية على ما فهمها روسو ، وبشر بها ، الا إذا استمتع اتباعها بامتيازات وقاموا بواجبات كانوا هم مقرريها والقادرين على تصريفها . وقد قال في هذا : « أنريد من عامة الشعب ان يتحلوا بالفضائل ؟ اذن فلنبدأ بحملهم على حب بلادهم. ولكن كيف يمكنهم ان يحبوا بلادهم اذا كان نظرهم اليها مثل نظر الاجانب اليها واذا كان كل ما ينالونه منها هو ما لا تمنعه عن اي شخص آخر ؟ وتصبح الحالة اسوأ فيما لو انه لم يتيسر لهم الأمن المدني ، واذا كانت املاكهم وحياتهم وحرياتهم تحت رحمة الاقوياء ، دون ان تكون لهم المقدرة بان يلتجئوا الى القانون ، او حتى السماح لهم بان يفعلوا ذلك . »

*

لم يكن روسو اول من وضع نظرية محكمة في القومية فحسب ، ولكنه وضع الاركان الاساسية لربط القومية بالديمقراطية . ولذلك كان اثر روسو كبيراً في الحركات التي قامت في القرن

التاسع عشر . فدعاة القومية ودعاة المشاركة والمساواة السياسية استمدوا من آرائه ونظريته . وقد عمل على انتشارها ان الثورة الفرنسية سارت على مبادئه لما تألبت اوربة على فرنسة . فكان ثمة مجال للافكار التي تعظم الوطن وتقوي الشعور القومي بان تُعتنق ويناضل عنها ، وحملتها الجيوش الفرنسية معها فذاعت وانتشر امرها .

القومية والدولة

في القرن التاسع عشر

« المانية وايطالية »

•

في درسنا لتطور القومية في انكلترة وفرنسة رأينا انهـا كانت نتيجة لوجود دولتين عملتا على ايجاد امة وتبعَ ذلك قيام روح قومية . على ان هذا السبيل لم يكن عاماً ، بل الغالب ان يكون قيام الروح القومية وانتشارها باعثاً للامـة على تحقيق وجودها السياسي وكيانها الدولي، فتصبح دولة موحدة. والامثلة على هذا النوع من التطور كثيرة . لكننا سنقتصر على درس الحركة القومية في المانية وايطالية لنرى كيف تم للبلدين توحيدهما السياسي . ونود ، بهذه المناسبة ، ان نذكر القارىء بان انتشار الروح القومية في القطرين وتحقيق الوحدة السياسية في الدولتين كانا متعاصرين ، وهما من نتاج القرن التاسع عشر .

المانيـة

جاءت الروح القومية في المانيـة متأخرة عنها في انـكلترة وفرنسة والولايات المتحدة ، حتى وفي كثير من الامم الاوربيـة

الاخرى . فقد كانت المانيـة ، حتى اوائل القرن التاسع عشر ، تتألف من مجموعـة من الامارات والممالك ، اكبرها بروسية في الشمال ، ولكنها لا تربطها بعضها ببعض رابطة سياسية ، الا ان تكون بقية الامبراطورية الرومانية المقدسة رابطة ، وحتى هذه قضى عليها نابليون . والذي يلفت النظر هو انه مع تفرّق المانية ، وتنابذ امرائها ، وتنافر دولها ، لم تظهر فيهـا روح قومية محلية فلم تكن هناك قومية بافارية واخرى سكسونية وثالثة بروسية وهكذا دواليك . بل بالعكس من ذلك فقد كانت الحركة المانية عارمة . والذي عليه الباحثون ان ثلاثة عوامل هي التي يرجع اليها ذلك : اولها ان هذه الدول الصغرى كانت قد انتشرت فيها كلها ، على توالي العصور ، لغة واحدة ومعها ثقافتها وآدابها الاجتماعيـــة والقانونية . فلما ظهرت الروح القومية كانت وسيلتها للوصول الى الجماعات المختلفة جاهزة . وثانيها انـــه لم تكن هناك فروق جغرافية واقتصادية قوية بحيث توجه هذه الوحدات الصغيرة توجيها متباينا . وثالثها هو ان هذه الوحدات السياسية ، باستثناء بروسية ، كانت صغيرة فلم تستشعر انها قوية الى حد انها تستطيع ان تقف منفردة . ويبدو لنا هذا الامر واضحاً اذا ذكرنا ان تيقظ الروح القومية في المانية جاء مع حروب نابليون . فرأت الدول الالمانية عمليا انه لا قبل لها بالوقوف امام قوة مثـــل فرنسة وهي متنافرة .

والثورة الفرنسية هي التي حملت المفكرين الالمان على النظر في شؤون انفسهم نظراً جديا . فلم يكن من الطبيعي ان تعصف

الثورة ومبادئها بفرنسة دون ان تتأثر المانية بذلك . وجاءت حروب نابليون فأيقظت الالمان من سبات عميق . ورافق هاتين الحادثتين تقدم تجاري في المانية حمل الطبقة المتوسطة على التفكير بامر توحيد البلاد كلها ليتسع نطاق عملها التجاري .

فنحن نرى اذن انـه في مطلع القرن التاسع عشر رأى الالمان انفسهم بحاجة الى دولة كبيرة تستطيع ان تقابل الدول الواقعة الى الغرب منهم . فاتجهت المانية نحو وعيها القومي تركزه ليصبح عقيدة الناس ، فقلدت في ذلك الدول التي سبقتهـا . وتأثر المفكرون الالمان بالمفكرين السياسيين الانكليز والفرنسيين وهؤلاء كانت آراؤهم السياسية الحديثة تقوم في الدرجة الاولى على اسس قومية .

ويتحتم علينا ان نشير هنا الى ان الحركات الثقافيـة الالمانية في ذلك الحين تأثرت بالنزعة القومية فكان من ذلك ان انصرف الكتاب الى دراسة اللغة والعناصر البشرية والتاريخ بقصد الوصول الى منابت الالمان وتطورهم في العصور التاريخيـة حتى ظهور هذه الجماعات التي تعيش في المانية الكبرى .

ولعله من الخير لنا وللبحث الذي بين أيدينا ان نشير هنا اشارة مقتضبة الى اثنين من مفكري الالمان في اوائـل القرن التاسع عشر وعرض آرائهما من حيث علاقتها بالفكرة القومية عامة وفي المانية خاصة ، وهما فختـه وهكل .

اما فختـه فقد كان يرى ان الدولة يجب ان تتدخل في شؤون الافراد وتعين السياسة العامة للجماعة وخصوصا في نواحي

الحياة الاقتصادية . وكانت هـذه النظرية تقوم على اساس ان المانية بلاد زراعيـــة [1] فقيرة يعوزها الاتحاد السياسي ، فمن الضروري ان يكون تدخـــل الدولة في شؤون التأمين الاقتصادي عمليا [2] . ثم عاد فخته فعالج الدولة وماهيتها في حياة الامة في موضع آخر فرأى أن الدولة هي الخير الامثل للامة . وقد عبر عن هذه المسألة بقوله « ان الدولة القومية لا تتكون من اية مادة ، بناء على اسس صناعة محكمة ولكن من الضروري ان تنمى الامة وتنشأ بحيث تستطيع حمل الدولة القومية . »

واما هكل فقـــد كان وقع تحت تأثير روسو في بعض نواحي تفكيره السياسي ، فقبل منه رأيه القائل بأن الحرية الادبيـــة قوامها الخضوع للارادة العامة . لكنه عارضه في انه اعتبر الشرائع التي تسير الامة بمقتضاها نتيجة لتاريخ الجماعـــة وتقاليدها وعاداتها وانظمتها . ولما كانت هذه كلها موجودة بحكم انها ملازمة للامة في ادوار حياتها فلم يكن ثمة حاجة لوجود هيئة تشريعية ذات سلطة عليا تسن هذه الشرائع على نحو مـا ارتأى روسو . ومن هنا كانت نظريات هكل السياسية خالية من التحدث عن مثل هذه الهيئة . فالدولة عنده هي ما ينتج من الاختبارات التي تجتازها الامة في ادوار حياتها ، فاذا فقدت بعض انظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الامة في آمالها وامانيها فقدت حقها بالبقاء وحُقّ

---

(١) كانت الحركة الصناعية بعد حديثة العهد في البلاد .

(٢) اوضح هـذا في منشور اسمه The Closed Commercial State (سنة ١٨٠٠)

عليها ان يستعاض عنها بغيرها .

ومما لا ريب فيه ان الحرب التي كان نابليون قد شنها على الدولة الالمانية ، والانكسار الذي نالته هذه على يديه ، قد أثر في هكل. فقد حز في نفسه ان يرى جماعته مهانة ، فعمل على احياء الروح القومية . ولعل هذا هو السبب في دفاع هكل عن الحروب. فانه كان يعتقد بانها مفيدة لانها توقظ روح الامة وتعلمها الطاعة المطلقة للدولة وتنجيها من الخصومات الداخلية التي تنتاشها ان لم يهددها عدو خارجي بخطر ماحق .

وقد يمكن ان نلخص ما جاء به هكل ، من حيث علاقته بالقومية ، باننا عندما ندرس التاريخ فالذي يجب ان نتخذه وحدة لبحثنا هو الامة لا الافراد او المجموعات التي تتألف منها. فعبقرية الامة او روحها هي التي تخلق الفن والشريعة والآداب والاخلاق وحتى الدين . وقد تعاقبت على هذا العالم ثقافات قومية تكون منها تاريخ الحضارة البشرية . وجميع البواعث النفسية التي تتوفر في شعب فتحمله على الخلق والابداع انما تؤتي ثمرها عندما تعي الدولة القومية وجودها وتبلغ اشدها. فالدولة، على هذا، هي المسيرة للتطور القومي والغاية التي ينتهي هذا التطور عندها ، وتحتها ينطوي كل ما تجني منه المدنية قوة ادبية او روحية .

وليس على الفرد اذن الا ان يخضع للدولة القومية خضوعاً تاماً. فالدولة القومية هي الفضيلة المثلى .

فالوعي القومي في المانية كانت تواتيه أحوال مناسبة وكان يدعمه طائفة من كبار المفكرين أمثال فخته وهكل . فلما جاء

وقت العمل كانت الافكار مهيأة له فتم على يد بسمارك .

والحادث التاريخي المعروف بتوحيد المانية شغل السياسة العملية حقبة من الزمن امتدت من ١٨١٥ الى ١٨٧١ .

ويمكن ان تقسم هذه الفترة الى دورين اولهما يمتد الى سنة ١٨٤٨ . وثانيهما يشغل السنوات التي تلت ذلك .

والدور الاول هو الوقت الذي نفذت فيه آراء فخته وهكل وغيرهما من دعاة القومية الالمانية الى طبقات الشعب المتعلمة ، واعتنقها المشتغلون بالتجارة ، والمشرفون على شؤون الصناعة . لكن الدعوة القومية في هذه الفترة القصيرة لم تكن شغل رجال السياسة ، ذلك ان كبار المفكرين لم يكونوا يولون السياسة عنايتهم ،بل كانوا ينظرون اليها والى المشتغلين بها نظرة استهجان ان لم تكن نظرة احتقار . وكان من جراء ذلك ان الجماعة التي يصح تسميتها « بالمانية الفتاة » ، والتي كانت تعتبر نفسها قائدة لحركة المتقدمين ، كانت تتألف من الشعراء والادباء، ولم يكن فيها من رجال السياسة العملية احد . وكانت الجماعة اذا عرضت للسياسة فانما يتأتى لها ذلك باعتبار انها تنتقد الحياة الاجتماعية والعقلية ، فتتطرق من ذلك الى الناحية السياسية . وكانت الجماعة حرة في آرائها ، بينما رجال السياسة كانوا من المحافظين . فكانت الحركة القومية كلها مرتبطة بحرية الفكر ومحاولة تحقيق الحرية السياسية . فقد كان يعتقد أن القومية الالمانية لا تتحقق الا اذا انتشرت الحركة الديمقراطية معها بين افراد الشعب . وفي هذه الناحية كانت الفكرة الالمانية تشبه في جوهرها ما آل اليه الامر في انكلترة ، وتتفق

مع الآراء الفرنسية وخاصة ما جاء به روسو .

على ان رجال المال والاعمال استطاعوا ان يقوموا ، بالاشتراك مع رجال الحكم المحافظين ، بعمل في سبيل تحقيق الوحدة السياسية . فقد نجحوا في ايجاد الاتحاد الجمركي [1] الذي كان اولى الخطوات في سبيل سيطرة بروسية على شؤون المانية .

والمهم في هذا الاتحاد الجمركي انه ادى الى تقوية الروح القومية . فان الطبقة المتوسطة ، وهي الطبقة التي تعتمد عليها الحركات الفكرية والاجتماعية في نموها وسيرها نحو القوة ، افادت من الاتحاد الجمركي هذا فائدة كبرى فاصبحت بدورها تسعى الى ما هو اكبر منه وأعم . هذا بالاضافة الى أن الاتحاد نفسه حطم الشعور المحلي وقضى على الفكرة التي قوامها استقلال كل امارة بشؤونها واصبح الاساس الذي يبنى عليه التشريع في المستقبل . فصار ينظر اليه على انه يمثل المصلحة العامة للشعب الالماني كله . وهكذا نجد ان الاتحاد الجمركي نقل العاطفة القومية الالمانية من مجال الامل والخيال الى حقل الحياة العلمية — الى الواقع .

على ان الحوادث التي مرت باوربة سنة ١٨٤٨ ، والثورات التي فشلت في تلك السنة ، كان اثرها قوياً جداً في تغيير وجهة نظر الالمان . فان زعامة الاحرار ، القائلين بوجوب تحقيق الوحدة القومية على اسس الديمقراطية السياسية ، اخذت تضعف . وتقدم

---

(١) Zollverein

المحافظون ، وهم الذين كانوا اصحاب الحل والعقد في البلاد عامة وفي بروسية خاصة ، فتزعموا حركة الوحدة القومية واصبحت القومية والمحافظة تسيران معاً في المانية ، وبعدت الآراء في السياسة العملية فيها عن وجهة النظر الانكليزية والفرنسية ، اذ ظلت القومية هنا ديمقراطية السياسة .

وهنا جاء دور بسمارك فقد كان زعيم المحافظين وصاحب النفوذ الفعلي في بروسية ، وكان يرى النواحي التي تعيق السير نحو التوحيد السياسي في الداخل وفي الخارج . اما في الداخل فقد جاءت من هذه الخصومة التي اشرنا اليها قبلا . واما في الخارج فقد كان مصدرها ثينا وامبراطورية آل هابسبرج . وعمل بسمارك على القضاء على الاثنين . اما في الداخل فقد اعانه التقدم الاقتصادي الذي لمس الناس اثر الاتحاد الجمركي فيه . وساعده ايضا دعوة لست [1] القائلة بوجوب تدخل الدولة لحماية الزراعة والصناعة والتجارة وتيسير السبل لتقدم هذه الموارد كلها .

واما في الخارج فقد لجأ بسمارك الى ما سماه سياسة الدم والحديد ، فشن حروبا انتهت باعلان اتحاد الامبراطورية الالمانية في سنة ١٨٧١ .

ايطالية

استقبلت ايطالية القرن التاسع عشر وهي مفككة العرى

---

(١) List : A National System of Economy وقد نشره سنة ١٨٤١ واصبح عندها عقيدة للمشتغلين بالشؤون الاقتصادية بالمانية .

مقطعة الاوصال . فالجزء الشمالي منها واقع تحت حكم النمسا ، والجزء الجنوبي تحكمه اسرة غريبة عن البلاد ، والجزء المتوسط تابع لسلطان البابا الزمني . وبين هذه وتلك دوقية او امارة مستقلة . وكلها ترغب في دوام الحال على ما هو عليه . ويستثنى جزء واحد من ايطالية هو مملكة سردينية وبيمونت . فقد كانت هاتان المنطقتان يحكمهما آل بيمونت وكان ملكها ، شارل البرت ، ايطالياً قبل كل شيء .

هذه هي الحالة السياسية . ولم تكن الحالة الاقتصادية خيرا من ذلك . فايطالية فقيرة تعتمد على الزراعة ، والفلاحون فيها غارقون في بحر من الجهالة . ولم تكن الحركة الصناعية الجديدة ، التي قد اخذ بها شمال غربي اوربة ، قد انتظمت ايطالية بعد . فلم يكن ثمة طبقة وسطى ، يكوّن قوامها رجال المال والاعمال ، وتنظر الى الامور نظرة صائبة ، وترى العلاقة بين المصلحة والقومية فتربطها بعضها ببعض ، بدل ان تباعد بينها . وقد قوى هذا الضعف الاقتصادي التنافرَ والتباعد والتنابذ وشجع الروح المحلية .

على انه كان للايطاليين تاريخ قديم . وهذا التاريخ القديم ترك لهم ارثا استطاع مفكروهم وكتابهم ان يذكروهم به . كان ذلك الارث قوامه ثلاثة اشياء : اولها الوحدة التاريخية التي استمتعت بها ايطالية سبعة قرون او تزيد فاعتادت الاتجاهَ بنظرها نحو مصدر واحد لشرائعها وثقافتها ونظمها وحضارتها . وثانيها لغة واحدة او تقرب من ذلك هي لغة لاتينية تطورت مع

القرون حتى آلت الى اللغة الأيطالية التي كان يفهمها جميع سكان البلاد . اما العنصر الثالث من تلك الاشياء فهو شعور غامض بان هذه الجماعات المتباينة واولئك الافراد المنتشرين في البلاد من شمالها الى جنوبها انما تتكون منهم جميعاً « امة ». لكن هذا الشعور « بالامة » كان كامناً غامضاً مبهماً ، فمتى اتيح له من يثيره ويوقظه اتضح وكان عارماً قوياً قد يقضي على كل شيء في طريقه .

في النصف الاول من القرن التاسع عشر سرت العدوى القومية الى ايطالية مثل سريانها الى المانية وغيرهما . واتجهت الحركة القومية فيها نحو غايتين ، الوحدة والاستقلال . ومع ان المشتغلين في الحقل القومي اتفقوا في الاهداف فقد اختلفوا في الوسائل الواجب اتباعها . ويمكن على العموم ملاحظة تيارين رئيسيين : فقد كان ثمة المعتدلون الذين دعوا الى التحالف بين الولايات التي كانت في ايطالية ، على ان تحتفظ حكوماتها بكيانها الشخصي بقدر لا يحول دون التحالف . فهم لم يهتموا بالناحية الديمقراطية في برنامجهم ، اذ لم يفكروا بان يرافق عملية التوحيد اشراك الشعب الايطالي في تقرير مصيره السياسي وتعيين نوع حكومته بنفسه . ولعلهم كانوا يرون ان اتحاداً شبيهاً بالاتحاد الجمركي الالماني ، مع تقويته سياسياً ، كان كافياً لحل المشكلة الحالية . وقد كان بعضهم يرى أن مملكة بيمونت يجب ان تتقدم الى الميدان فتخرج النمساويين من البلاد وتؤلف من الوحدات المحلية الاتحاد المنتظر وتتزعمه . لكن شارل البرت كان يرى أنه

لا قبل له بمجابهة النمسا ، ومملكته على حالها من الضعف .

وكانت ثمة جماعة اخرى تمثل الاتجاه الآخر ، وتتلخص اراؤها في ايجاد وحدة سياسية تامة لا يفصل اجزاءها عن بعضها البعض شيء ، وان يكون شكل الحكم في الدولة الجديدة جمهورياً ، وان يقوم على اساس ديمقراطي ، فيشترك فيه الشعب في تقرير شؤونه ومصيره . وكان يتزعم هذه الحركة مزيني (١٨٠٥–١٨٧٢) وكانت « ايطالية الفتاة » ، الجمعية السرية التي انشأها سنة ١٨٣١ ، سبيله لتنظيم حركته وثورته ونشر مبادئه بين الايطاليين . وقد نفي مزيني فقضى شطراً من حياته في سويسرة وفرنسة ثم استقر في انكلترة (١٨٣٧ - ١٨٧٢) . وكان غريبالدي من المؤمنين بوجهة نظر مزيني . فقد كان يرمي الى انشاء جمهورية تضم ايطالية كلها .

وفي السنة ١٨٤٨ ، سنة الثورات في اوروبة ، اندلعت ألسنة الثورة في شمال ايطالية . وعندها رأى غريبالدي ومزيني ان الفرصة سانحة ، فهاجما رومة واحتلاها ، واخرجا البابا ، واقاما هناك جمهورية صمدت امام القوى النمساوية والفرنسية والصقلية حيناً ، ثم تغلب الفرنسيون عليها واعادوا البابا . وقد جاء مزيني في تلك السنة الى رومة ليشرف على الامور ويشترك فيها . فلما فشلت المحاولة الاولى عاد الى لندن ولكنه لم يئل ، وكذلك غريبالدي لم ييأس . وعاد الاثنان الى الدعاية والاستعداد : مزيني بما أوتي من مقدرة على الكتابة المثالية وغريبالدي بنشاطه الفذ في ميدان التنظيم للثورة والتهيئة لها . ومن الحق ان نضيف هنا

كافور ، وزير مملكة بيمونت ، الذي اهتم بامر الوحدة ليصبح ملك بيمونت [1] ملكاً لايطالية الجديدة ، فاخذ يشجع نشاط الاثنين الآخرين ويفيد من اعمالها وخططها .

وجاءت الفرصة المؤاتية سنة ١٨٥٩ فاقتحم غريبالدي الميدان بجرأته وحزمه وحماسته ومعه الف متطوع غير مدربين . وانتصر في الخطوات الاولى فتزايد اتباعه واغتنم كافور الفرصة فتقدم بقواته المنظمة . وفي سنة ١٨٦١ أعلن فكتور عمانوئيل ملكاً على ايطالية . وبعد عشر سنوات ضمت البندقية ثم املاك البابا . وبذلك تمت الوحدة الايطالية السياسية . وقد اشار جورج مريديث الشاعر الانكليزي في قصيدة نظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، الى نهضة ايطالية بعد كبوتها فقال : « اننا نفكر باولئك الذين نفخوا الحياة في هيكلها المتداعي – كافور ومزيني وغريبالدي ، دماغ ايطالية وروحها وسيفها ، وحرروها من خصوماتها القاتلة تحدوهم غاية نبيلة . »

اما وقد عرضنا الى الحركة نفسها واشرنا الى الحوادث ، فاننا نريد ان نقف عند امرين وقفة قصيرة . الامر الاول هو أهمية سنة ١٨٤٨ في توجيه الفكر القومي الايطالي ، والامر الثاني هو مزيني نفسه .

اما سنة ١٨٤٨ – ١٨٤٩ فقد اظهرت أن المعتدلين ، دعاة الاتحاد ، كانوا مخطئين في برنامجهم السياسي . لان القوى المتنافرة

---

(١) فكتور عمانوئيل خليفة شارل البرت .

في ايطالية لا تريد ان تتخلى عن سلطانها المحلي في سبيل المصلحة العامة . وظهر من محاولة اقامة الجمهورية في رومة ان هذه الفكرة ايضاً ليست مما يقبله اصحاب السلطان ولا مما يتفق مع الدرجة السياسية التي كانت عليها عامة الشعب الايطالي . وكان من نتيجة حوادث تلك السنة ان اتضح أن ملك بيمونت لا يستطيع ان يقاوم النمسا وحده ، وانه من الضروري ان تنتشر بين الشعب روح تؤيد الفكرة العامة . هذه هي النواحي السلبية التي اظهرتها تلك السنة . اما الناحية الايجابية فتظهر واضحة في الطريقة التي اتبعها جميع المشتغلين بالقضية السياسية في ايطالية وهي أنه كان من الضروري ان تزول كل الحواجز بين الجماعات والافراد وان يذوب كل الايطاليين في الحركة ، فيكون منهم امة واحدة تحت اشراف دولة واحدة .

اما مزيني فيجب ان ينظر اليه على انه العقل المفكر والروح الوثاب في حركة الوحدة الايطالية . وعلى انه ، فوق ذلك ، الرجل الذي جعل للقومية والوطنية مكانة عليا في حركات القرن التاسع عشر الفكرية في اوربة ، بحيث كان اثره في هذه الناحية لايتطاول اليه اثر مفكر آخر . ومما لا ريب فيه ان كتاباته مسؤولة عن كثير من الحركات القومية الحديثة .

كان مزيني يعتقد أن الغاية التي يجب ان يبذل كل فرد جهده في سبيلها هي تقدم البشرية . ولكن الفرد لايستطيع ان يقوم بواجبه نحو البشرية اذا كان منفرداً ، اما متى اجتمع الافراد تمكنوا من اتمام العمل . والجماعات اما ان تكون عائلة واما ان

تكون امة واما ان تكون البشرية جمعاء . اما العائلة فوحدة صغيرة لا يمكنها ان تعمل شيئاً في سبيل سعادة الانسانية . والبشرية جمعاء وحدة كبيرة جداً لا يتيسر لها ان تقوم بالعمل مشتركة . فلم يبق إلا الوحدة « الامة » . فمتى كانت ثمة امم توزعت العمل واجادته وكانت نتيجته خيراً عليها كلها . واذن فمن مصلحة العالم ان تكون ثمة « أمم » تسعى لخيره ، ومن واجب كل فرد ان يكون جزءاً من امة . وعندها تتاح له الفرصة لمعرفة الاسس التي يحكم بموجبها على نفسه وعلى اعماله ، التي يتكون منها ومن اعمال بقية الافراد ، جماع ما يتوجب على الامة القيام به .

ومن هنا نرى أن مزيني كان يعتقد أن الامة الايطالية يجب ان تتم لها وحدتها القومية والسياسية لتخدم المدنية العالمية لا لتعتدي على غيرها . وهذا يحملنا على الاشارة الى ناحية أخرى من تفكير مزيني وهي أن كافة الشعوب لها الحق في الحرية والسيادة ما دامت فيها حيوية الامة ونشاطها .

اعتقد مزيني أن حرية ايطالية وتأسيس دولتها تكون ناقصة ومهددة بالخطر الا اذا اصبحت ايطالية شريكة في اخوة كبيرة قوامها الامم الحرة . ولذلك تحولت « ايطالية الفتاة » التي انشأها سنة ١٨٣١ الى جمعية اكبر كثيراً اسمها « اوربة الفتاة » واصبحت جمعيته الاصلية و « المانية

الفتاة » « وبولونية الفتاة » « وهنغارية الفتاة » فروعاً لها. وعن طريق هذه المؤسسات انتشرت آراء مزيني القومية واصبحت دعوة الى كل شعب لتنظيم شؤونه على اساس القومية والسعادة . لذلك يجب ان يكون تقرير المصير القومي الخطوة الاولى في سبيل التحرر واول درجاته . والى مزيني يرجع الفضل الاكبر في أن الحركة الايطالية القومية كانت انقى حركة وانبل تعبير للفكرة القومية سجلها التاريخ الاوروبي ، وبهذا تتميز عن حركة الوحدة الالمانية .

ونحن ، بعد ان عرضنا رأي مزيني هذا العرض المقتضب ، نقف عند الرجل ثانية لنرى الدور الذي لعبه في سبيل ايطالية نفسها . اما من الجهة الواحدة فقد طبع الحركة كلها بهذا الطابع العالي الذي اشرنا اليه . واما من الجهة الاخرى فقد كان لمزيني مقدرة كبيرة على تنظيم الدعاية بين الشعب الايطالي وفي الخارج لمصلحة ايطالية . ففي الحقل الاول ظهرت مقدرته في « ايطالية الفتاة » ، اذ كانت سبيله لنشر المبادىء القومية بين قومه . فكان اتباعه يرحلون الى كل جزء من ايطالية ، غير مبالين بما يلقون من نصب وتعب ، وما يعترضهم من مشقات واخطار . فقد كان عليهم ان يتجولوا بين الرعاة في مراعيهم وبين الزراع في حقولهم وبين الصناع والتجار في حوانيتهم ، ويقصوا عليهم اخبار المجد الأثيل المنسي

الذي عرفتـــه بلادهم ، ويهبوا بهم ان يبـذلوا نفوسهم لاحيائه واعادته . واما في الحقل الخارجي فقد تمكن من إثارة عطف الشعوب القوية على الحركة الايطالية فهيـــأ الافكار لما حدث فيما بعد .

الفكرة القومية

في تركية الحديثة

•

بلغت الامبراطورية العثمانيـــة في القرن السادس عشر اقصى اتساع لها . ففي سنة ١٥١٧ ضمت اليهـــا سورية ومصر ، وبعد ذلك بقليل فتحت العراق ، وفي سنة ١٥٢٩ احاطت خيول العثمانيين بمدينة ڤينا محاصرة لها . واعتبرت الدول الاوربية توسيع العثمانيين في اوربة نفسها خطراً عليها ، فاتحدت ضدهم ، وتمكنت من ارجاعهم تدريجاً في اواخر القرن نفسه . واستمرت مقاومة الاوربيين للعثمانيين شديدة عنيفة حتى اقصوهم عن اواسط اوربة . واشتركت الروسيا في الخصومة ضد العثمانيين في القرن الثامن عشر ، وشنت على الدولة العلية حروبـــاً متعددة في ذلك القرن والقرن الذي تلاه . لكن اوربة ما عتمت ان نقلت حروبها ضد الدولة العثمانية الى مصر على يد نابليون ثم على ايـــدي الانكليز الذين احتلوها سنة ١٨٨٢ .

ولسنا نقصـــد في هذه العجالة ان ندرس تاريـــخ

الامبراطورية العثمانية ، لكننا يجب ان نذكر انه في القرن التاسع عشر كانت دول اوربة القوية ، وهي انكلترة وفرنسة والنمسا والروسيا ، قد تغلغل نفوذها في شؤون الدولة العثمانية السياسية والاقتصادية والقومية . فتقدمت بعضها مدعية حماية الاقليات الدينية في املاك الدولة . وحاول البعض الاخر ان يحصل على امتيازات مالية ومدنية . وفرضت دول اخرى حمايتها على الاجزاء المترامية من اراضيها ، وشجعت هذه الدول الثورات التي اخذت تظهر في انحاء مختلفة من الامبراطورية العثمانية . وكان لها كلها امتيازات قنصلية وبريدية وتجارية يتمتع بها رعاياها المقيمون في الدولة العثمانية .

وقد اخذت المفكرين العثمانيين يقظة قوية في الوقت نفسه كانت ترمي الى اصلاح الدولة وتخليصها من النفوذ الاجنبي . واشترك في ذلك من الكتاب شناصي افندي ونامق كمال وضيا باشا ، ومن رجال الاصلاح السياسي مدحت باشا ، ومن السلاطين عبد العزيز . وكان من جراء هذه المحاولات ان قامت الثورة الدستورية في سنة ١٩٠٨ .

ثم جاءت الحرب الكبرى الماضية واشتركت فيها تركية الى جانب دول الوسط ، وخرجت منها مكسورة وانتزعت منها كل املاكها . وهمّ الحلفاء باقتطاع منطقة ازمير ومنحها لليونان لولا قيام مصطفى كمال (أتاتورك) الذي استردها فظلت جزءاً من تركية الحديثة .

كانت محاولات القرن التاسع عشر في الامبراطورية العثمانية تتجه في ثلاث طرق مختلفة . فواحدة كان اساسها الجامعة العثمانية والثانية كانت تعتمد على الجامعة الاسلامية والثالثة كان قوامها الجامعة الطورانية . لكن الحرب الكبرى الماضية قضت على الاولى ، ومصطفى كمال عزل الثانية عن تركية فلم يبق الا الثالثة . وهذه النزعة نفسها تحولت الى نزعة تركية بدل ان تكون طورانية .

وتركية الحديثة تسيطر عليها ، في جميع نواحي حياتها ، القومية التركية المحضة . وترتكز هذه القومية على اللغة والادب ودرس التاريخ وإحياء الاعياد وإشراك الاتراك ، افراداً وجماعات ، في سياسة البلد . ونحن عندما نذكر اللغة والادب يجدر بنا ان نشير الى الدور الذي قام به الكتاب الثلاثة (شناصي افندي ونامق كمال وضيا باشا) في احياء اللغة التركية الحديثة ، ونشرها بين المتعلمين ، عن طريق ترجمة عيون الادب الاوربية ، وانشاء الجرائد اليومية ، وتأليف القصص والكتب التي تتناول حياة الاتراك وتاريخهم بالدرس والتحليل . وعلى ايديهم اتخذت بعض الكلمات القديمة معاني جديدة . فبعد ان كانت كلمة « وطن » يفهم منها البيت او مكان الميلاد صارت تدل على « البلاد » ، وبعد ان كانت كلمة « ملت » تعني جماعة دينية صارت تشير الى « الشعب » .

وفي اوائل القرن الحالي نجد جماعة من شباب الترك

يعلنون في جريدة « الافلام الفتية » ان لغة جديدة وأدباً جديداً ومدنية جديدة ، تستمد أصولها من الروح التركية وحدها ، قد ظهرت . وخير من يمثل النزعة التركية الحديثة في الادب واللغة اثنان : خالدة اديب وضيا الب بك . اما الاولى فقد حضرت اجتماعاً طورانياً وسمعت ما القي فيه من الخطب وكتبت عقيب ذلك تقول : « بينما كنت أصغي لتلك الخطب شعرت أن روحي تحركت من أعماق نفسي وادركت الى أي حد تتأصل اماني تركية الحديثة في وجود اجدادنا . فقد وصلت الي نغمات موسيقية منبعثة من دمنا الطوراني وحملتني معها حتى انني الى هذه الساعة اشعر كأنني اسمعها . وقد وثقت عندها انه يتوجب علينا ان ننحدر الى ينابيع الحياة لنحصل على الروح التي يجب ان نبثها في شعبنا لنتمكن من الوصول به الى الاهداف السياسية التي نرمي اليها . » واما الثاني فقد قال في اشعاره : « ان الشعور الذي يجري في دمي هو صدى ماضيّ ، وان اعمال اسلافي المجيدة اتحسس آثارها في الدم الذي يجري في عروقي وفي قلبي ، بعد ان كنت اقرأها في صفحات جافة مغبرة صفراء من كتب التاريخ . ان اتيلا وجنكيز خان ، وهما معجزة جنسي ومظهر عظمته ، ليسا دون الاسكندر وقيصر . و « اغزخان » لا يزال حيا في قلبي وفي دمي بكل عظمته وبهائه ، وهو الذي ينشر السرور في قلبي ويحدوني الى ان اصرخ بحماسة قائلاً

ليست بلاد الاتراك تركية او تركستان فحسب ، ولكنها طوران الخالدة . » وقـال في مناسبة اخرى : « ليست طوران مسرحاً خيالياً . فان القبائل التركية المنتشرة في آسية ستلتف حول العلم التركي وتنشيء امبراطورية عظيمة . والاتراك يجب ان يتحدوا ويخلقوا حياة خالدة هي جماع ما في حياة افرادهم من قوة » .

وهكذا عمد الاتراك الى تاريخهم القومي يستلهمونـه نشاطاً وروحاً ، وعمل كتابهم على انعاشه فأحيوا عاداتهم واغانيهم القبلية ، والروح الحربية التي كانت هـذه القبائل تحياها من قبل ، ورأوا ان الخير في ان يقووا ذلـك بتعليمه للأطفال . واهتموا باعيادهم الوطنية فسار قرابـة الف منهم الى قبر محمد الثاني فاتح القسطنطينيـة ليستمدوا من ذكراه قوة تساعدهم في الجهـاد الذي رأوا انفسهم مقبلين عليه واخذوا يسمون اولادهم باسماء تركية بحتة .

وارادوا ان يشمل هذا التغيير نواحي الحياة المختلفة في المدارس والكليات وفي المتاجر والمزارع والبيت فشمـل ذلك الرجل والمرأة والغني والفقير والكبير والصغير عـلى حد سواء .

ولعله كان بعض الخلاف لا يزال قائماً في التفاصيل او في الاسس التي يجب ان تسير عليها تركية الحديثة ، لكن النزاع بين الاتراك واليونان ، وانتصار مصطفى كمال وقيامه على رأس الحكومة التركية الجديدة ، ازال كل خـلاف

مهما كان نوعه وصارت تركية دولة قومية بكل مـا في الكلمة من معنى . ففي بدء النزاع اعلن ان كل الارض التركية التي تقطنها اغلبية من الاتراك وحدة لا تتجزأ وان الشعب التركي مستعد لمقاومة اي احتلال في اي جزء من بلاده . والسيادة الدولية حق قطعي للأمة ، ولهذه الامـة الحق المطلق بان تدبر امورها ، وتدير شؤونهـا ، وتقرر مصيرها بنفسها . والمجلس الوطني الكبير هو الممثل الاوحد لارادتها ولا ترضى بغيره مشرفاً على شؤونهـا . وتستمد تركية مثلها من شخصيتها القومية وتقبل على المدنية الغربية لتختار منها ما تراه مناسباً لها .

اما الدور الذي قام به مصطفى كمال في خلق تركية الحديثة فلا مجال لتفصيله هنا ، لكننا نوجز فنقول بانه اليـه يرجع الفضل في تنزيك الحيـاة الاقتصادية والسياسية والفكرية . لانه بالاشتراك مع مساعديه ومعاضديه ومؤازريه استطاع ان يوجه كل فرد في تركية نحو الحياة القوميـة الجديدة . فشعر كل تركي انه انما خلق ليرضع قوميته في البيت ويتعلم دروسها في المدرسة ويعمل من اجلها ويموت في سبيلها . وعنـدئـذ يكون له الحق في ان يعتبر انـه قد قام بواجبه وعاش ومات محترماً بين جماعتـه وقومـه وان بلاده كانت محترمة عزيزة المكانة بين الامم الاخرى.

مقومات الأمة

•

اذا كان القرن التاسع عشر عصر الحركات القومية ، فقد كان بطبيعة الحال ، عصر فلسفة القومية . والذي نقصده من هذه العبارة انه كان العصر الذي حاول فيه الكتاب والمفكرون ان يفسروا معنى « الامة » ويدرسوا العوامل التي تعمل على تكوينها . وقد ورث القرن العشرون هذه الفكرة وتناولها بالدرس . وها نحن اولاء نعرض الآن لهذه الناحية من بحثنا . ويجدر بنا ان نلاحظ بادىء ذي بدء ان انقسام المفكرين والكتاب في الموضوع انما يرجع الى الفلسفة العامة والاختبارات التي مرت بها بلادهم ايام جهادهم في سبيل تحقيق امانيها القومية . والعوامل المختلفة التي اعتبرت مؤثرات رئيسية في وجود « الامة » وكيانها هي : الوحدة الجغرافية والعوامل الاقتصادية والدولة والوحدة العنصرية والدين والتاريخ واللغة .

« والامة » ، عندما نحاول ان نوضح ماهيتها ، تظهر انها صعبة التحديد . فمما لا ريب فيه مثلا انه من الضروري ان

يكون بين الافراد الذين تتكون منهم الامة شعور عام مشترك يمكنهم من العيش معا في صقع واحد . ولكن ما هو هذا الشعور المشترك ، ومم يستمد وجوده وقوته ؟

فقد اعتبرت الوحدة الجغرافية في وقت ما أحد العوامل التي تكوّن الامة . والمقصود بالوحدة الجغرافية هو ان تكون البلاد التي يسكنها الشعب واضحة الحدود بينة الرقعة متحدة في صفاتها الجغرافية من حيث سطحها ومناخها . فتكون هذه الصفات المشتركة ، والحب الذي يحس به سكان البلاد نحوها رابطا يربط الافراد بالبلاد ويربطهم من ثم بعضهم ببعض . ومع اننا نجد أن كثيرا من الامم التي تكاملت شخصيتها القومية تقطن بلادا لها وحدة جغرافية ، ومع الاعتقاد بان هذه الوحدة كانت عاملا مساعدا في ايجاد الامة ، فان فقدان هذا العامل لا يستطيع ان يفكك امة فيجعل منها شعوبا كما ان وجوده وحده لا يخلق من شعب متفرق امة . فاليونان المحدثون يقطنون بلادا مختلفة السطح في اجزائها ، متباينة الملامح الطبيعية ، ومع ذلك فقد احتفظوا بالشعور بوحدتهم القومية . وهذه بولاندة ، وهي في مقدمة الشعوب العالمية تمسكا بوحدتها ، تسكن بلادا لا حدود واضحة لها ولا يفصلها عن جارتها الشرقية ، الروسيا ، او عن جارتها الغربية ، المانية ، شيء . فالاقطار الثلاثة متصلة ببعضها لانها اجزاء من السهل الاوربي العظيم . ومن الناحية الاخرى فهذا سهل هنغارية الذي يكون وحدة جغرافية ،

لم يؤد الى خلق امة هنغارية من الشعوب المتباينة الساكنة فيـــه .

اما وحدة المصالح الاقتصادية وتشابه الاعمال في جماعة واحدة فقد اعتبرها البعض عاملا رئيسيا لتكوين الامة . ولعل هذا من آثار المدرسة التي تفسر التاريخ تفسيراً اقتصاديا . فقد قيل ان هذه المشاركة تعين على توحيد وجهات النظر بين الافراد ومن ثم تؤدي الى توحيد شعورهم . وقد يصح هذا في بعض الحالات . فلعله كان عاملا مؤثرا في الدنمرك . لكننا اذا حاولنا تطبيقه على بلاد اخرى وجدناه لا يغني فتيلا . فاي اشتراك نستطيع ان نلمسه ، من الناحيـــة الاقتصادية البحتة ، في حياة سكان جنوبي فرنسة وسكان شمالها الشرقي ؟ فاهل الجنوب يغرسون الكرم واهل الشمال يعملون في المناجم والمصانع . والذي يمكن ان يقال بهذه المناسبة ، هو أن اهل ليـــل في فرنسة مثلا ، اقرب الى سكان حوض الرور الالماني في تفكيرهم الصناعي الاقتصادي . ومثل هذا يمكن ان يقال عن اهل برمنغهام واهل ديفون في انكلترة . ومثل هذا كثير .

وحتى لو توسعنا في معنى العامل الاقتصادي بحيث اعتبرنا المقصود منه النظام الاقتصادي (المالي) الذي تسير عليه الدولة فاننا لانجد فيه شفاء لغليلنا . فانه من العبث ان توجد شعوراً « بالامة » بسبب ان السياسة المالية للدولة تتجه اتجاهاً معيناً . بل قد يؤدي اتباع مثل هذا الامر

الى التفرقة . فهل يمكن ايجاد شعور قومي انكليزي بين سكان كنت ، في الجنوب الشرقي من البلاد ، على اساس ان سياسة الحكومة الانكليزية الاقتصادية ترمي الى العناية بتجارة الصوف الخاصة بيوركشير او صناعة الاقطان المتمركزة في لانكشير ؟ الواقع ان السياسة المالية ووحدة المصالح الاقتصادية تساعد على تنمية الشعور وتقويته اذا كان موجوداً .

وما دمنا بسبيل التحدث عن هذه المسئلة فاننا نحب أن نذكر القارىء بان التقدم الاقتصادي في المانية كان عاملا مهما في سبيل التوحيد السياسي ، لان الطبقة المتوسطة ازداد عددها وتعددت مصالحها ورأت فائدة من هذه الوحدة فشجعتها . وهذا امر آخر . فنحن الآن بسبيل التحدث عن العامل الاقتصادي ووحدة الشعور القومي لا عن اثره في التوحيد السياسي .

ومما اعتبر انه عامل هام في ايجاد الامة هو وجود دولة تحكم ذلك الشعب لمدة طويلة . وقد رأينا اثر هذا في نشوء انكلترة وفرنسة فلا حاجة بنا الى تكراره هنا . فخضوع شعب لدولة واحدة يؤدي الى توحيد انظمته وقوانينه وادارته ، ويتعدى ذلك الى ادبه ومدارسه ، ومن ثم يتاح للامة ان تصهر في بوتقة الحياة فتزداد ترابطاً ومتانة . على ان هذا الصهر لا يتم الا اذا توفرت العناصر التي تقوم الحكومة بتوحيدها . وهذا ما حدث في انكلترة

وفرنسة واسبانية في عصورها المختلفة .

وثمة نظرية لقيت منذ مدة تأييداً كبيراً في بعض البلدان الاوربية — هي نظرية « العنصر الواحد » او « العنصرية النقية » . والمتحدثون عن هذه الناحية ، مثل الذين يمارسونها دون تحدث عنهـــا ، يرون أن ثمة عناصر خاصة في العالم قادرة على خلق المدنية والاحتفاظ بهـا . ومن الطبيعي ان يكون دعاة مثل هذه النظرية يرون ان العنصر الذي ينتمون اليه ، بـل ذلك الفرع نفسه من الجنس الذي يمتون اليه بصلة ، هو خير الاجناس وسيدها ، وصاحب الفضل الاوحد على العالم ، وفيه جماع الفضائل .

ولكن السؤال الذي يخطر ببالنا حالا هو هـذا — هل ثمة « امة » من الامم الحديثة ، في اوربة او في غيرهـا ، تستطيع ان تقول عن نفسها انها — من الناحية العنصرية — متحدرة من اصل واحد او انها ليست سوى نتيجة امتزاج بين عناصر عديدة ؟

لنلق نظرة عامة على بعض الامم الاوربية ولنختر امثلتنا من الدول التي تقوى فيها النزعة العنصرية . فهذه المانيـة مثلا . ما هو تاريخ الامة الالمانية الاثنولوجي ؟ اما في فجر التاريخ فقـــد كانت تسكن المانية المجموعات التالية (١) الكرومانيون (٢) فلاحو الدانيوب الذين رحلوا اليها (٣) جماعات جاءتهـا من السهوب الشرقية (٤) مهاجرون رحلوا اليها من جنوب الروسيا واستقروا في سهولهـا (المانية)

الشمالية . وفي الازمنة التاريخية جاءت الى المانية (٥) جماعات اسكندنافية منها القوط واللمبارديون وغيرهم (٦) وحول القرن التاسع للميلاد هبطها الصقالبة بحيث ان سكان كيل ولبك ومغدبرغ وبرلين ودرسدن كانوا يتكلمون اللغة الصقلبية في العصور الوسطى . فالامة الالمانية الحالية هي نتيجة لامتزاج كل هذه العناصر : فشمالها الغربي اقرب الى اهل اسكندنافية ، وشرقها - شرقي نهر الالبه - تقل فيه صفات النورديين ، وتغلب عليه الصفات الصقلبية ، اما الجنوب فتنتشر فيه الجماجم المستديرة التي يتحدر اصحابها من اصل اوراسي .

وهذه ايطالية ان هي الا نتيجة اختلاط بين عدد كبير من العناصر المختلفة . فالجنوب فيه غالبية من سكان البحر الابيض المتوسط الاصليين . واما الشمال فغالي الجنس . هذا من حيث ما نعرفه عن سكان ايطالية في اوائل عهدنا بالتاريخ . اما في الازمنة التاريخية فقد دخل في تكوين سكان ايطالية جماعات جاءت من حوض الدانيوب واواسط اوربة كالغاليين القدماء والقوط واللمبارديين (في القرنين الخامس والسادس للميلاد) .

اما انكلترة ، وهي آخر مثل نقدمه ، فيكفينا ان نشير الى أن سكانها هم نتيجة اختلاط القلت والأنكليز والسكسون والجوت والدانيين والنرويجيين والنورمان (الفرنسيين) . والى هذا اشار ديفو لما قال عن الانكليزي

انه « بدأ من اختلاط جميع الانواع والاجناس . »

فهل بعد هـذا يقال إن ثمة « امة » متحدرة من عنصر واحد ؟

على انه بعد الذي عرضناه نستطيع ان نقول ان اختلاف التاريخ العنصري لشعب ما لا يحرمه من صيرورته امة ما دامت هذه العناصر قد اختلطت وامتزجت ببعضها ولم تقف من بعضهـا البعض موقف عداء ، كما هي الحال في بعض الدول البلقانية التي لم تتحد شعوبها ، ومن ثم لم تنشأ فيها امـة موحدة ، رغم انهـا تعيش في بلاد واحدة (وحدة جغرافية) وتحت سلطة حكومة واحدة . ومثل هذا هنغارية ورومانية وبوغوسلافية .

ولعله من المفيد ان نشير هنا الى أن النظرية العنصرية ، التي تفضل جنسا على آخر ، والـتي ترمي الى السيطرة على كل من تعتبره تابعا للجنس الاصلي — هذه النظرية لا تتفق ابداً مع القومية . فالقومية اساسها وحدة الشعور بين افراد الامة ، وتلك العنصرية تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التي تساكنها وتعايشها ، ومن ثم كانت القومية العنصرية خطرا على السلم العالمي ، بينما نجـد ان القومية الصحيحة تهيء اتباعها للقيام بواجبهم كجماعة — كامة — في سبيل المدنية والحضارة العالمية .

والدين عزا اليه بعض المفكرين اثرا كبيرا في ايجاد امة . وقد لا يكون هذا بعيدا عن محجة الصواب اذا اخذنا أمثلة

معينة .. فلعل الخلاف الديني كان احد العوامل التي ادت الى فصل البلجيكيين عن الهولنديين ، او لعل ما يظهر على سكان اسكتلاندة من الشعور بالوحدة القومية يعود الى أثر الدين في نفوسهم . فقد يكون الدين عاملا من عوامل التوحيد والربط . على اننا اذا نظرنا الى الامر من الناحية الاخرى وجدنا ان هناك كثيراً من الامم التي بلغت الوحدة القومية فيها درجة التمام والتي هي « امم » و « دول قومية » من خير ما يمكن ان نعثر عليه — وجدنا ان هذه الامم يختلف أفرادها في نظرتهم الدينية . فالمانية تغلب الكثلكة على جنوبها وتسود البروتستانتية في شمالها ولكن ذلك لم يمنعها من ان تكون امة . وهذه انكلترة تتألف من جماعة كاثوليكية صغيرة ، نسبياً ، وغالبية بروتستانتية وهي ما عرفنا من عراقة في الشعور القومي . بل هذه دول اوربة الاخرى يستمتع افرادها بالحرية الدينية دون ان يضعف ذلك الاختلاف الفردي او تلك المفارقة بين الجماعات قوميتها او شعورها بانها امة في حدودها .

هذه العوامل التي عرضنا لها يمكن اعتبارها كلها او بعضها ، متفرقة او مجتمعة ، مؤثرة في تكوين الشعور القومي . وقد يختلف أثرها باختلاف العصور التي تمر بالشعب الواحد . لكنها ليست على ما نرى ، العامل الرئيسي . وهنا يبدو لنا ان نسأل انفسنا — ما هو العامل الرئيسي في تكوين هذا الشعور العميق الذي يتجلى في تصرف

الافراد الذين تتكون منهم الامة والذي يميزهم فيشعرون بكيانهم ووجودهم وحياتهم الخاصة ، اي يدركون انهم « امة » وان لهم — « قومية » .

نعتقد ان التاريخ واللغة هما العاملان الرئيسيان .

التاريخ بكل ما فيه — بحوادثه ورجاله وابطاله ، بانتصار الشعب وانكساره ، بافراح القوم وأتراحهم ، بسراء الجماعة وضرائها ، بالخير الذي نعمت به والشر الذي عمها . هذا التاريخ وما فيه من ذكريات وما يخلفه من تقاليد وما يملأه من مآثر البطولة او الدفاع المشترك ضد العدو ، وما يرويه من قصص وأساطير وما يثيره في نفوس الناس من عواطف — هذا التاريخ هو الذي يحيي نفوس أفراد الامة ويبعث فيهم الروح القوي الوثاب ويدفعهم الى الامام . أسماء ابطالهم ومواطن معاركهم وأماكن كفاحهم المشترك هي التي توثق بينهم وتجعلهم يشعرون هذا الشعور بالوحدة والالفة . يمرون بمدنهم وقراهم فتوحي لهم بذكرى السنين وتنبعث من كل جزء من بلادهم أصوات الماضي تذكرهم بما قاموا به وما استمتعوا به وما ألموا من أجله .

على أن حوادث التاريخ الوطني تتغربل ، قصداً او بغير قصد ، بحيث يعرف الناس مواطن القوة في ماضيهم وينسون مواطن الضعف . ومثال ذلك ان كل انكليزي يعرف ان انكلترة غلبت فرنسة في ايام لويس الرابع عشر ولكن التقليد القومي يحذف من التاريخ الانكليزي حقيقة أخرى

وهي ان الملك شارل الثاني أقام عند ملك فرنسة أسيراً . ومع ان وليم الثالث (ملك انكلترة) حارب من اجل هولندة اكثر مما قاتل في سبيل انكلترة فان هذا الامر لا يقال للانكليز في مدارسهم ولا في الاحاديث العامة . لأن الاشارة الى شارل ووليم بهذا الشكل يضعف من منزلتهما كبطلين من ابطال التاريخ الانكليزي القومي .

ما الذي يجعل السربيين أمة ويحملهم على المطالبة بالاعتراف بكيانهم ؟ انها ذكرى أبطالهم مثل دوشان الذي يقدسه كل سربي ، وانها ذكرى معركة قوصوه (١٣٨٩) التي انكسروا فيها ، والتي صرفوا بعدها أربعة قرون وهم مستعبدون ، ولكنهم ظلوا يحاولون ان يزيلوا أثرها عنهم حتى أتيح لهم ذلك في مطلع القرن الحاضر .

وما الذي جعل من الهولنديين امة ؟ انهم من حيث جنسهم ومن حيث دينهم بل ومن حيث لغتهم قريبون جداً من الالمان ، ولكن هذا الجهاد الطويل الذي بذلوه في سبيل التخلص من النير الاسباني (في القرن السادس عشر) والذي اشترك فيه القوم جميعهم هو الذي يبعث في نفوسهم الحياة القومية والروح الوطنية . فيحمل العالم على الاعتراف بهم انهم أهل للسيادة القومية في بلدهم . هذا الجهاد وما فيه من اختبارات وتضحيات وفشل ونجاح هو سر هذا الارتباط فيما بينهم .

التاريخ المليء بذكرى الماضي المجيد وهو مبعث الأمل

وهو سر اللهيب الذي يشتعل من أثره كل فرد حماسة وطنية قومية فلا يتقاعس عن القيام بواجبه متى دعا الداعي .

واللغة هي العامل الرئيسي الآخر . اللغة التي يتكلمها الشعب ويقرأها أفراده ويكتب بها مفكروه وينظم بها شعراؤه ، هي سبيل لنقل اثر التاريخ واختباراته الى القوم – صغيرهم وكبيرهم ، فتاهم وفتاتهم . فتصير هذه الآثار جزءا من حياة القوم الفكرية والروحية وعاداتهم الوطنية والخلقية وتصبح قوة تنجدهم عند الدعوة ، وثروة تغنيهم عند الحاجة ، وحيوية تنبثق من قلوبهم ونفوسهم فتضمهم الى بعضهم وتربطهم معاً .

واللغة انما تحتل هذه المنزلة من النفوس وتلعب هذا الدور لا على أنها الفاظ فحسب ولكن على أنها آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ولون من الوان الشعور وفلسفة في الحياة . هذه اللغة هي جماع هذه كلها . وبقدر ما يتمكن الافراد من لغتهم تنمو حياتهم المنبثقة من أعماق نفوسهم والخارجة من قلوبهم ، فتمتلىء بعد فراغ ، وتشبع بعد جوع ، وتغنى بعد فقر .

وبعد فما هي الامة ؟ وما هي القومية ؟ القومية في جوهرها وأصلها شعور . والامة هي نتيجة هذا الشعور . هي نتيجة شعور الافراد واعتقادهم بوجودها . ولن يكون لهذا الشعور وجود إلا متى توفرت الصفات المشتركة التي

تمكن الافراد بان يدركوا بانهم يختلفون عن غيرهم . هـذه الصفات المشتركة تبدأ بسكناهم بقعـــة من بقاع الارض يستمتعون بخيرها على نظام مشترك ، ويرافق ذلك فلسفة في الحياة عامـــة أساسها التاريخ والتقاليد والاختبارات والافكار واللغة والآداب المنتزعة من صميم حياتهم الماضية والحاضرة التي تحدد لهم أهدافهم المستقبلة وتقيم لهم خطتهم في الحياة .

هذه الامة هي التي أرادها مزيني بقوله انها وحدة صالحة لتكون أساساً للتقدم البشري لانهـا قادرة على خلق جزء من حضارة العالم : فان هذه الحضارة تتكون من مجموع ما تنتجه الامم في ادوار التاريخ المختلفة .

العروبة

العرب أمة أنتجتها ثلاثة عوامل هي العنصر والرقعة والتاريخ .

سكن العرب ، بادىء ذي بدء ، الجزيرة العربية في حدودها المعروفة الواضحة . فملأوا جبالها وأوديتها وسهولها وصحاريها وتأثروا بطبيعتها . فتفرقوا تفرقها ،وتنابذوا تنابذها ، واختصموا خصومتها ، وكرموا بقدر ما بخلت عليهم . عمروها حيث استطاعوا الى ذلك سبيلا . فكانت لهم في اليمن والحجاز مدن ، وكانت لهم في نجد وغيرها قرى ، واكتفوا بالاقامة الموقتة حول الماء والكلأ في بقاع أخرى منها . وكانت لهم آدابهم وتقاليدهم وكانت لهم منازلهم ومراتعهم وكانت لهم مذاهبهم ولغتهم .

وفي الازمنة المتوغلة في القدم أخذت جماعات منهم تنتشر في الربوع المصاقبة للجزيرة . فكان منهم اللخميون في ديار العراق وكان منهم الانباط والغساسنة في مشارف الشام ، وكان منهم الحرانيون في حران ، وكان منهم أهل تدمر فيما بين العراق والشام . وفي هذه المدن المنتشرة آثارها

والقائمة أنقاضها ، داخل الجزيرة وخارجها ، قامت دولهم وترعرعت مدنيتهم ونمت تجارتهم وزراعتهم وصناعتهم . أخذوا في هـــذه المدن وأعطوا فكانوا حلقة اتصال بين الاروبة الاصلية وبين العالم الخارجي وكانت لهم مع جيرانهم الاقوياء من أهل فارس وبزنطية أيام ، قرعت فيها السيوف وتكسرت فيها النصال على النصال ، وانخذلوا حينا وانتصروا أحيانا .

وهـذا الانتشار للعرب في هـــذه الديار كان مستمراً ومتتابعاً . ولذلك نجد الناس فيها ينطقون بلسان عربي مبين ويتناشدون الشعر العربي البليغ قبل الاسلام بقرون .

فلما ظهر الاسلام بين العرب ، وتأثروا بهديه ، وخرجوا من الجزيرة ينشرونه للناس انضم عرب الحيرة النصارى الى عرب الجزيرة المسلمين ، وحارب الجميع جنباً الى جنب ضد الفرس . وحدث مثل هذا في مشارف الشام فاشترك الغساسنة مع اخوانهم ضـــد البزنطيين . وحمل العرب على مناوئيهم فلم يمر قرن واحد من الزمن بعد وفاة النبي حتى كانت خيولهم قـــد وصلت نهر السند وأواسط آسية شرقاً ، وجبـال البرانيز غربا . وهذا الفتح العسكري رافقه انسياح العرب في البلاد المفتوحة فاستقروا فيها جماعات وقبائل . على اننا يجب ان نذكر بهذه المناسبة أمرين : الاول هو ان الجماعات العربية كانت اكثر عدداً واكبر نفراً في العراق وسورية ومصر منها في الاقطار الاخرى التي كانت ابعد عن الجزيرة نفسها . والثاني هو ان هذا الانسياح لم يقتصر على فترة الفتح التي

يمكن ان يقال إنها انتهت في اول القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) ، بل استمرت هجرات الجماعات العربية شأنها في ذلك شأن الهجرات قبل الاسلام ، لكنها في هذه الفترة كانت أبعد مدى بحكم سيطرة العرب على بقاع أوسع . وبالاضافة الى هذا الرحيل المستمر فان الرواية التاريخية قد حفظت لنا آثار رحلات وهجرات جاءت بعد الفتح وكانت على شكل قوي ونطاق واسع . منها موجتان تستحقان الذكر ، الاولى موجة في القرن الخامس للهجرة (القرن الحادي عشر للميلاد) اتجهت نحو بلاد المغرب وتظهر آثارها في « تغريبة بني هلال [1] » ، واخرى موجة في العصر الصلاحي لعلها استقرت في سورية بشكل خاص .

فالهجرات هذه وما كان للعرب من سلطان سياسي يسر للعنصر العربي ان ينتشر ، ويتسع نطاق تأثيره . ولسنا نقول بانه قضى على كل عنصر كان هناك ، ولكن الحقيقة الثابتة هي انه تمثل جميع الشعوب الاخرى وطبعها بطابعه .

لكن السلطان السياسي العربي انحسر عن طرفي العالم الاسلامي في الشرق والغرب . فايران وما الى الشرق منها ، واسبانية خرجت واستعادت حريتها السياسية . فاما الطرف الشرقي فاحتفظ من آثار الفتوح العربية بالاسلام ، واما الطرف الغربي فقد كان خروجه ، فيما بعد ، تاما . وظلت البلاد الوسطى وقد استقر فيها ثلاثة اشياء ثابتة الأثر :

(١) راجع عن هذه كتابنا « برقة ـ الدولة العربية الثامنة » .

العنصر الذي غلب على سكانها ، والاسلام الذي انتشر فيما بينهم ، واللغة العربية التي هزمت اللغات الاخرى . والحدود التي انتهت اليها سيادة العرب العنصرية واللغوية هي جبال فارس شرقاً ، وجبال إرمينية وطوروس شمالا ، وجبال اطلس غربا . ويخيل الينا ان السبب الرئيسي في وقوف انتشار اللغة العربية عند جبال فارس شرقاً هو طبيعة هذه الجبال فهي النهاية الغربية لنجد واسع — هو نجد إيران — والبداية الشرقية لسهل منخفض عنها — هو سهل العراق . فلم يكن من السهل ان ترحل جماعات كبيرة من سهل العراق الخصب الدفيء الى نجود إيران القاحلة الباردة . ففضل العرب الاستقرار في البلد الخصيب . ونحن نعرف أن عدد العرب الذين كانوا يقطنون خراسان وغيرها في ايام الامويين مثلا ، وهي أزهى ايام العرب ، كان ضئيلا بحيث انهم لم يستطيعوا الوقوف امام حملة الفرس العنيفة ضدهم . اما جبال طوروس فقد وقفت من الاصل سداً في وجه العرب ، فلم يتجاوزوها كثيراً . ولعل العامل المناخي — برد الجبال القارس — حال دونهم والمثابرة على حربها مثل مثابرتهم على حرب البقاع الاخرى . فوقف فتحهم العسكري والعنصري واللغوي عندها . وحتى الفتح الديني — اي انتشار لاسلام — لم يتم في بلاد الاناضول على ايدي العرب ، وانما عمل على نشره الاتراك — السلاجقة منهم والعثمانيون .

والذي يمكننا ان نخلص اليه من هذا العرض الموجز

هو ان العالم العربي الحالي ، من جبال فارس الى جبال أطلس سكانه عرب . عرب بمعنى ان العنصر العربي الاصلي استطاع ، بوساطة الاختلاط والتزاوج والجوار ، ان يتمثل الشعوب التي كانت هناك ويعربها . فهم عرب على اساس الاصل والفرع – عرب ومعربون .

على ان هـذا التغليب والتعريب لم يكن كما قلنا في مفتتح هذا الفصل ، نتيجة انتشار العنصر العربي فحسب ، ولكن عاملين آخرين اشتركا في تكوينه هما الرقعة والتاريخ .

والرقعة التي يقطنها العرب اليوم يمكن ان تقسم الى قسمين رئيسيين : الشرقي ويبدأ من جبال فارس وينتهي في صحراء مصر الغربية ، والغربي ويبدأ من برقة وينتهي في مراكش . والصحراء الغربية تكون ، على هـذا ، فاصلاً بين الجزء الشرقي والغربي .

ونحن اذا اخذنا الجزء الشرقي وجدنا التشابه بين اجزائه كبيراً جداً وحدوده الطبيعية واضحة كل الوضوح . فسهل العراق وسهول سورية وسهل وادي النيل ترجع الى عوامل طبيعية وادوار جيولوجية متشابهة في تكوينها . ونجد بلاد العرب ترتكز عليه بادية الشام وجبال سورية بقدر ما يعتمد عرب سورية على الجزيرة العربية في حياتهم القومية والروحية . وفي شمال هذا الجزء وشرقه نجد ان الحدود الطبيعية يرجع وجودها الى عوامل جيولوجية واحدة ، فهي جبال طي او التواء حديثة العهد .

اما في الجزء الغربي فيتفق توزيع سلاسل الجبال في

المنطقة الممتدة من تونس الى مراكش من حيث اتجاهها ، وحصرها الاودية بينها ، ونوع تربتها .

ونرى من هنا ان بلاد العالم العربي وحدة جغرافية واضحة الحدود ـ الجبال والبحر المتوسط والصحراء الكبرى الافريقية والبحر العربي وخليج فارس ـ بينة المعالم متفقة في مناخها ، فهو اقليم البحر الابيض المتوسط باستثناء المناطق التي تميل الى التطرف في احدى النواحي مثل صحراء العرب او مرتفعات لبنان وأطلس .

وهذه الرقعة لها ميزات اقتصادية هامة فهي غنية ، وثروتها منوعة . ففيها من المعادن في جبال اطلس الحديد والنحاس وفيها البترول في العراق والجزيرة العربية وفيها الاملاح المنتشرة في البحر الميت وغيره . وغلاتها النباتية تشمل الحبوب الرئيسية والقطن والزيوت والفواكه وكل هذه على اختلاف انواعها . وفيها مصادر للقوة المائية كبيرة . وهي فضلاً عن ذلك ذات اهمية خاصة من حيث انها مركز رئيسي لطرق المواصلات العالمية ـ البرية والبحرية والجوية . وهذه السكك الحديدية والطرق المعبدة تخترقها ، خاصة في جزئها الشرقي ، وقناة السويس تصل العالم الاوربي بالعالم الشرقي وهي في قلب المنطقة . وهذه المطارات منتشرة في انحائها .

والذي ينقص هذه الرقعة العربية هو ان ينظم توزيع ثروتها بحيث تأخذ البلاد ما تحتاجه ثم يصدر الباقي بمجموعة

كاملة الى البلاد التي تستطيع ان تستورد منها ما يلزمنا من آلات وغيرها . وعندئذ تظهر الفائدة التي تجني من عمل من هذا النوع .

ولننتقل الآن الى بحث أثر التاريخ في خلق القومية العربية .

وهذه البلاد التي يقطنها الشعب العربي لها تاريخ متغلغل في القدم . ففيها خطا الانسان الخطوات الاولى في سبيل المدنية ، فاهتدى الى استعمال المعادن في صنع أدواته وآلاته ، وفيها اخترع حروف الهجاء فكتب آراءه وأفكاره ؛ وفيها بنى اول بيت وشاد أول معبد وأقام أول قصر ؛ وفيها تفنن في نقوشه ورسومه ونحته لاول مرة ؛ وفيها فتح أول مدرسة ونظم أول قصيدة وأنشأ اول كتاب ؛ وفيها نظم أول حكومة . وهذه الدول التي قامت في وادي النيل وارض الرافدين وفي سهول سورية ومرتفعاتها حاولت كل منها بدورها ان يكون لها سلطان على جاراتها فكان من جراء ذلك ان قامت الامبراطورية المصرية التي وصلت جيوشها الى الفرات وقامت بعدها إمبراطورية الحثيين التي امتد نفوذها الى أواسط سورية وقامت إمبراطورية الاشوريين التي بلغت حدودها مصر ومثلها كانت دولة الكلدانيين . فلما دخلت فارس القديمة حلبة الفتوح امتد سلطانها من حوض السند شرقا الى صعيد مصر غربا . وفي كل حالة كان الفتح فتحاً عسكرياً سياسياً وكانت الدولة تعتمد في دوامه

واستمراره على حاميتها وولاتها والجيوش المرتزقة التي كانت تقوم بعمل الشرطة دون ان يكون لها اثر في حياة الشعب الاجتماعية والروحية والفكرية .

ثم جاءت هذه البلاد قوتان من الخارج الاولى اليونان والثانية الرومان . أما الاولى فقد جاءت مع الاسكندر وقد شمل سلطان اليونان مصر وسورية والعراق ، من البلاد التي يعنينا امرها الان . وكان الاسكندر ومثله كبار رجاله وخلفاؤه يحملون الحضارة اليونانية الى بلدان الشرق ، وكانوا يؤمنون بصلاحها للعالم أجمع . وقد رأوا ، وفي مقدمتهم الاسكندر نفسه ، أن خير سبيل لنشر مدنية اليونان هو بناء مدن تقيم فيها جماعات يونانية فتكون هذه بمثابة مراكز ينتشر منها نور العلم والعرفان بين سكان هذه البلاد . وتأثر سكان المدن الكبيرة من أهل البلاد الاصليين بالحضارة اليونانية وأقبلوا عليها فكان من ذلك ان انتشرت بينهم العادات اليونانية واللغة اليونانية وصارت هذه لغة الحكام والتجار والادباء والشعراء والعلماء ، ومن حاول ان يتقرب منهم على نحو ما كنت ترى في أنطاكية وسلوقية والاسكندرية وصيدا وغيرها . لكنك متى خرجت من المدينة وتجاوزت ضواحيها وأرباضها لقيت الناس يتكلمون بلغاتهم المحلية ولهجاتهم الخاصة . فالقروي خارج انطاكية كان يرطن بالآرامية ، والزارع والراعي خارج صيدا كانا يتكلمان الفينيقية ، ومن ثم أصبحت هذه المدن الهلينية (اليونانية)

جزراً في بحر من حضارة البلاد الاصلية . والى هذا يرجع السبب في اننا لا نجد شعوراً قومياً في سورية او العراق ، او حتى في مصر ، في العصر الهليني .

ولما جاء الرومان واحتلوا هذه البلاد جاؤها بلغة جديدة هي اللغة اللاتينية التي لم تلبث ان أصبحت لغة الحكم وأدانه بينما ظلت اليونانية لغة الفكر وسبيله . ولم ينشأ في أيام الرومان ولا في أيام خلفائهم البزنطيين شعور قومي لا في مصر ولا في سورية ، ذلك أن وسيلة التفاهم بين جميع السكان لم تكن واحدة فظلت آراؤهم وعاداتهم وتقاليدهم وامانيهم متباينة .

وفي السنة ١٥ للهجرة (٦٣٦ للميلاد) انتصر العرب على البزنطيين في اليرموك وعلى الفرس الساسانيين في القادسية . وبعد بضع سنوات كانت خيولهم قد وصلت هضبة إيران شرقاً وصحراء ليبيا غرباً .

امتدت الفتوح العربية الاسلامية قرناً وبعض القرن بعد وفاة النبي وكانت متعددة النواحي منوعة النتائج . فقد كانت فتحاً عسكرياً امتد الى الهند والصين شرقاً وبحر الظلمات غرباً . وكانت فتحاً عنصريا بمعنى أن الجنس العربي تمثل الاجناس الاخرى او تغلب عليها في بعض الاقطار دون البعض الآخر ، وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها كان استيطان العرب فيه اكثر وتأثره بالعنصر العربي اكبر. وكانت فتحاً لغوياً : فقد انتشرت اللغة العربية في الاقطار

المفتوحة انتشاراً سريعاً . واذا كان ثمة من يجب ان يذكر بالخير في هذه المناسبة فهما الخليفتان عبد الملك بن مروان والمأمون . فالأول عرّب الادارة فجعل العربية لغة الدولة الرسمية ، والثاني نقل العلوم الى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية : على أنه يجب ان نذكر فتحاً رابعاً تم في هذه الفترة هو الفتح الديني . فقد انتشر الاسلام في الاقطار المفتوحة لاسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن .

هذه الامور هي التي عينت اتجاه الامم والشعوب التي خضعت للعرب . فتلك التي خضعت لسلطان العرب السياسي وحده حاولت الثورة او الخروج ، فلما واتتها الظروف استردت حياتها الاولى . وبعض هذه الشعوب استقلت سياسياً لكنها احتفظت من الفتوح العربية بالفتح الديني ، اذ كان الاسلام قد تغلغل فيها . أما البلاد التي اصبحت عربية دماً ولغة وفكراً وعقلاً فهي التي تحدها جبال فارس شرقاً ، وجبال طوروس شمالاً ، ثم تمتد غرباً فتشمل مصر وشمال افريقية كله . وهذه الحدود اللغوية تتفق مع حدود طبيعية كان اجتيازها صعباً على عدد كبير من العرب ، فلم يقطنوا وراءها جماعات كبيرة ، ولذلك اقتصر تأثيرهم فيها على الدين او السياسة .

ولسنا في هذه العجالة بمعرض درس التاريخ العربي القومي درساً مفصلاً او حتى موجزاً ، ولكن الذي يعنينا أمره هو ان نقف لحظات معدودة عند تاريخ هذه البلاد

العربية محاولين ان نتبين الخطوط الرئيسية في تطورهـــ القومي . احتل العرب هذه الاقطار واستقروا فيهـــا ، وانتشر فيهـا الاسلام ، وأقبـــل الناس عليه فاعتنقوه فكان لهم منه هدي ديني ، وكان لهم منه قوة روحيـة ، وكان لهم منه أن أثار فيهم ما كان قد كمن من نشاطهم فاصبحوا ، تحت تأثيره ، قوة عاملة نشيطة في تركيز أصول الحضارة اليونانية والفارسية والهندية الـتي وصلت اليهم ، ثم كان لهم بعد ذلك حضارة عربية اسلامية . وترتب على انتشار الاسلام في العراق وسورية ومصر وشمال افريقيـة ان انتشرت اللغة العربية ، لغـة القرآن الكريم والحديث الشريف ، بين اهل هذه البلاد . وكان انتشار اللغـــة العربية شاملًا للسكان جميعهم في المدينـــة والقرية والريف فتكلم بها التاجر والزارع والراعي ، وتغنى بهـا الشاعر ، واستعملها القصاص ، ونودي بها الى الصلاة ، واقيمت بها شعائر العبادة ، ورتل بها القرآن . فوجدت سبيلهـــا الى نفوس الناس وقلوبهم وعقولهم . حتى ان من بقي عـــلى دينه من اهل البلاد لم يجد بداً من ان يتكلم اللغة العربية ويقرأها ويكتب بها . ومع ان انتشارها لم يعم البلاد في وقت واحد فانها لم تلبث ان اصبحت لغة المجتمع بكاملـه في حكومته وادارته وقضائه ومدرسته وعلمه وادبه .

وتاريخ هذه البلاد منذ ان احتلهـا العرب تاريخ ضخم فيه الخير والشر ، وفيه الحسن والقبيح ، وفيـه الصحف

البيض والصحف السود ، شأن كل تاريخ لكل امة بلغت من طول المدة وسعة الرقعة ما بلغه العرب وبلاد العرب.

وقد يكون ثمة تاريخ للنصرانية على أنها دين وفلسفة وفكرة ، وقد يكون ثمة تاريخ للاسلام على أنه دين وفلسفة وفكرة ، ولكن ليس ثمة تاريخ للنصارى وآخر للمسلمين في هذه البلاد . فما كانت الحوادث التي تقع في العراق او سورية او مصر تفرق بين مسلم ونصراني ، سواء في ذلك ما ينفع منها وما يضر . ولا كانت الخيرات تتخطى جماعة الى الاخرى ولا كانت المصائب تقع لفريق دون آخر . فهذه سورية تتعرض في العصور الوسطى لهجومين عنيفين الواحد من الغرب على ايدي الصليبيين ، والآخر من الشرق على أيدي التتار — فما وقع شر الخطر الغربي الا على كل البلاد وأهلها ، وما تأثر بالخطر الشرقي الا جميع السكان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم . فالمدن التي دمرتها الحروب كان سكانها من أهل البلاد على اختلاف عقائدهم . والجماجم التي بنى منها المغول الاهرام المختلفة في بغداد وتكريت وحلب كانت جماجم من وقع السيف على رؤوسهم دون ان يفرق السيف بين مذاهبهم . والضرائب التي فرضها الفاتحون او ابتزها الغاصبون دفعها أهل البلاد جميعهم دون ان يفرق الفاتح او الغاصب بين اتباع دين وآخر . ومهرة الصناع والمهندسين وأهل الفن والعلم الذين حملهم تيمورلنك من دمشق حول السنة

١٤٠٠ للميلاد جمعهم من سكان المدينة دون ان يخص فئة منهم بنسبة معينة . والقحط والجوع اللذان كانا يصيبان هذه البلاد ، ولا يزالان ، لا يسيئان الى طبقة من الناس دون اخرى .

ومن هنا نرى أن هذا التاريخ الذي تعرض له سكان العالم العربي كان تاريخاً مشتركا . اما انه كانت فيه أغلاط او أخطاء فذلك أمر طبيعي كما قلنا قبلا .

وهذا التاريخ المشترك هو الذي خلف لنا نحن العرب ذكريات قومية واختبارات وطنية وأدباً قومياً وقصصاً شعبياً وشعراً حماسياً كتب كله بلغة عربية واحدة ، وقرىء كله على أنه نتاج امة واحدة ، وتمركز كله حول أبطال هذه الامة ، ودار كله حول جبال البلاد ووهادها وسهولها وهضابها وقفارها وانهارها وشواطئها . فليست ثمة بقعة يستطيع الواحد منا ان يمر بها الا وأعادت الى نفسه ذكرى معركة نصرنا فيها او خذلنا ، او ذكرى بطل ضحى بنفسه في سبيلنا ، او ذكرى عالم قضى عمره في تثقيفنا ، او ذكرى اديب افنى أيامه ولياليه في سبيلنا ، او ذكرى مدينة او قرية او قلعة مات ابناؤها كي نحيا ، وقضوا كي نعيش . وليس من شيء في هذه البلاد الا وقد روته دماء زكية وعطرته أنفاس طاهرة من اولئك الاجداد البررة الذين خلفوا لنا بلادا وتاريخا ووطنا وقومية . وهذا التاريخ المشترك هو الذي وحد تقاليدنا وعاداتنا فقربنا من

بعضنا البعض . وهو الذي نرجع اليه لنستمد منه اختباراتنا ومثلنا العليا والمقاييس التي نحكم بها على الخير والشر والحسن والقبح والفضيلة والرذيلة . وهو الذي أورثنا هذا التضامن في الشعور والتكاتف في العاطفة والتآزر عند الشدائد والتآخي عند المصائب .

وهو ، قبل كل شيء وبعد كل شيء ، الذي ترك لنا لغتنا العربيـة فوحد تفكيرنا وعقليتنا وآراءنا . واللغة في معناها الواسع ليست مجرد الفاظ وعبارات تنتظمها كتابتنا . ولكن اللغة عادات وتقاليد وآداب وتفكير وتشريع ومعاملة. فاللغة هي الحضارة والثقافة ووحدة اللغة هي وحدة الفكر . وهذا الذي يكوّن الأمة في حياتها العقلية والعاطفية .

فتاريخنا هو الذي خلقنـا وهو الذي عيّن حياتنا وهو الذي حدّد رسالتنا . ولا سبيل لنـــا الى فهم حياتنا فهما صحيحا ، وتأدية رسالتنا على الوجه الامثل ، الا متى عرف كل فرد منا تاريخه القومي وعاد الى أبطاله ورجاله ليستوحيهم ويستلهمهم ، والا متى عـاد الى تراب بلاده يتشممه ليحس فيه روحه ونفسه وحياته ، والا متى عاد الى أدبه يسترشد به .

درس التاريخ

•

وما هو هذا التاريخ القومي الذي نتحدث عنه ؟ هل هو تاريخ السنين والمعارك ؟ ام هو تاريخ الرجال والنساء ؟ ام هو تاريخ البذخ والترف ؟ ام هو تاريخ شظف العيش وجفافه ؟ ام هو تاريخ الفكر والروح ؟

هو ، ايها القارىء الكريم ، كل هذه مجتمعة .

نعم . هو كل ما قمنا به وما عملناه . ومن حقه علينا ان نسبر غوره ، ومن حقنا عليه ان يرشدنا . ولن يرشدنا حتى نفهمه . فكيف نفهم تاريخنا ؟

لندع جانباً تاريخ الحضارة المادية في حياة العرب ، ولنترك موقتاً هذه المعارك والمواقع ، على ما لها من قيمة وأثر . ولنحاول ان نقف لحظة عند تاريخنا الفكري ، لنرى اهميته .

ولهذه الوقفة سبب من الواجب ان نعرفه . ذلك ان الذي قيل لنا ويقال لنا ، يوماً بعد يوم ، هو ان العرب كانوا في عالم الفكر مقلدين ، فلم يستطيعوا ان يسبروا غور المشاكل العقلية ، ولم يتمكنوا من ادراك النواميس

الفكرية ، ولم ينفذوا الى النواحي الروحية العميقة في الحياة . بل قيل لنا ، ويقال لنا ، في كل يوم ، ان العرب كانت لهم عقلية جامدة قيّدها الاسلام ، وهو أساس الحضارة العربية ، فاصبحت متحجرة لا تقبل جديداً ، ولا تصلح للنموّ ، ولا تجاري التطور .

فهل ذلك الذي قالوه صحيح ؟

خرج العرب من الجزيرة وقد هداهم الاسلام بنوره ، وارشدهم القرآن الكريم سواء السبيل . واستقر بهم المقام في هذه الرقعة الواسعة من العالم . وكانت بعض البلاد التي آلت اليهم قد عرفت حضارة اليونان والرومان وقبلت النصرانية . فهل وقف العرب من هذه الحضارات وقفة من يأبى ان يفيد ويستفيد ؟ ام انهم اخذوا منها آراءها ، ونقلوا عنها علومها ، وافادوا من اختباراتها ؟

كان لهم بالاراء اليونانية اتصال . بدأ عن طريق السريانية ، وانتهى بان اصبح مباشراً . فنقلوا من هذه الاراء اليونانية والنظريات الشيء الكثير ، واصطنعوا وسائلها في الجدل والمنطق والمناقشة ؛ ثم بدأ رد الفعل عندهم بان ظهرت بينهم افكار جديدة وآراء متباينة . بعضها يتناول الاحوال الشخصية ، على ما نرى من ظهور المذاهب الاربعة . وبعضها يتناول الاراء العامة ، على نحو ما نعرف من آراء في الخلافة والحكم . وبعضها تغلغل في صميم العقيدة الاسلامية ، على ما نعرف عن المعتزلة والمرجئة

وما اليهم . وبعض هذه الاراء شمل اتجاهات جديدة في التفسير ، على نحو مـــا ظهر في المدارس السنية والشيعية .

كل هذا ظهر والعرب بعد لم يمر على اتصالهم ببقايا الحضارات سوى وقت قصير . فهل هذا نتيجة عقل جامد ؟ هل هذا تحجر ؟

وفي القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) كان العرب قد ظهرت لهم فلسفات . وهـــذه رسائل اخوان الصفا ، وما فيها من محاولات لحل المشاكل الفكرية التي عرضت لهم دليلٌ على هذا الوعي للامور والادراك للمسائل التي يمكن ان تشغل بال المفكرين . ومهما قيـــل في رسائل اخوان الصفا ، ومهما اختلف الباحثون في تفاصيلها ، ومهما تأوّل دارسوهـــا في دقائقها ، فثمة امر واحـد يظل قائماً ، وهو ان الفكر العربي قام فيها باول محاولة لتفسير الكون تفسيراً شاملاً ، بحيث يمكن ان تقابل مع المحاولات العالمية من هذه الناحية . وقد يكون الاجتهاد اخطـــأ كاتبيها ، او قد يكون التفسير تعوزه خطوط أدق ، فالعبرة بالمحاولة من حيث دلالتها على استعداد هذا الفكر العربي لان يقوم بوضع فلسفة عامة شاملة .

ولست اود الاستمرار في عرض هذه الامور ، لكنني انتقل الى ذكر اسماء لها في تاريخ الفكر الفلسفي العالمي قيمتها ووزنها مثـل ابن سينا ، وابن رشد ، والرازي . اليست تلك الابحاث التي طرقها هؤلاء الاعـــلام وثبات فكرية ، وثورات عقلية ، ان دلّت على شيء فانها تدل

على ان هذا الفكر العربي كان مستعداً للنمو ، قابلاً للتطور ؟

هذه قضية حريّ بنا ان ندرسها وان ننشرها بين بني قومنا ، ليعرفوا ان العقل العربي اثبت تاريخه وبرهنت حياته على انه كان له استعداد لان يجاري الزمن ، وقد يسبق الزمن . ومن حقه ان لا ينعت بالجمود ، ولا يوصف بالتحجر ، لا لشيء الا لأن العرب اليوم مقصرون ، ولان اصحاب الاغراض يقولون عنه ذلك .

وثمة ناحية اخرى ينعكس فيها استعداد الفكر العربي للتطور ، وقبوله للجديد . هي ناحية التنظيم الاداري للدولة العربية . والدولة ، مهما اختلفت اساليبها في الادارة ، انما تعكس دائماً روح الشعب ونفسيته وعقليته واساليب تفكيره .

فالعرب الذين لم يعرفوا قبل الاسلام الادارة الواسعة والتنظيم الدقيق ، لم يستنكفوا من ان يأخذوا عن الفرس والبزنطيين ، وسائل التنظيم ، واسباب الادارة . فهذا وزير ، وذاك محتسب ، الواحد يدبر الدولة ، والآخر يشرف على الاسواق . وهذا ناظر المال وذاك ناظر البيمارستان ، الواحد يعنى بالخزينة ، والآخر يهتم بالمرضى . ومثل هذا كثير . ولكنهم جعلوا هذه الوظائف ذات روح عالية وقيمة خلقية ، فاعتبروا القائمين بها مسؤولين عنها مسؤولية اخلاقية ، مستمدة من روح الدين . ولعلّ هذا الذي حدا بالبعض الى القول بان تفاصيل الادارة كانت دينية في الصميم . وهذا البعض بود ان يقول ان كونها دينية

يفيد معنى الجمود . وهم في ذلك مفترون .

والاسلام اس من اسس الحياة الفكرية عند العرب . فهل الاسلام ، كما يقول المغرضون من خصومه ، دين جامد لا يقبل التجديد والتطور ؟

لسنا نعنى الآن بالتجديد الاسلامي في العصر الحديث . فلنترك ذلك . فاننا معنيون قبل كل شيء بالتحدث عن العقلية العربية في ايام ذروتها . ونود ان نتحدث عن الاسلام في ذلك الوقت .

فقد شغل الاسلام عدداً كبيراً من العلماء في تاريخ العرب الطويل . فثمة المفسرون والفقهاء والقضاة والمفتون والمحدثون ومن سار سيرهم . وكل واحد من هؤلاء قام بحصته في سبيل توضيح الاسلام لمن اتصل به سواء اكان مهتدياً بهديه ، او مجاوراً لاهله . وخرج الناس من ذلك وقد تزوّدوا بعقيدة وعبادات واخلاق نص عليها في القرآن الكريم ، واوضحها دارسوه وشارحوه . ولكن من المسلمين من هداه رأيه الى وسيلة اخرى يتصل بها بخالقه ، وترتفع بها نفسه ارتفاعاً مباشراً الى الوجد الروحي والاتصال بالله . وهذا هو التصوف . فماذا كان موقف الاسلام من هذا الاتجاه ؟ هل اعلن الاسلام ان الصوفيين كفرة ملاحدة ؟ وهل اتهمهم بانهم مارقون عن الدين ؟

الجواب عند حجة الاسلام الغزالي . وهو الذي صرف قسما كبيراً من حياته ليوفق بين الامرين ، بين الاسلام

وبين التصوف ، بحيث وضع الامرين في خط واحد من التفكير ، وسبكهما في اسلوب واحد من التعبير . واثبت ان الاسلام فيه من القوة الروحية ما يتسع للتصوف ويقبله ، وفيه من اتساع الآفاق ما يجعل مثل هذه النزعة جزءاً من كيانه . اما ان بعض مفكري الاسلام اخذوا على المتصوفة مآخذ ، فيرجع ذلك الى ان بعض المتصوفة انفسهم هبطوا من آفاقهم الروحية العليا الى نوع من الحياة لم يرض عنها الاسلام ، ولا يرضى عنها دين آخر .

فنحن عندما ندعو الى فهم التاريخ العربي فهما صحيحاً ، انما نرمي الى درسه دراسة تُظهر ما في الحضارة العربية من عناصر الخلود والقيم الروحية . وعناصر الخلود فيها تبدو في استعداد الفكر العربي للنمو ، سواء أكان ذلك عن طريق الثورة او التطور ؛ كما تبدو في مقدرة الفكر العربي على تمثل ما يأخذ ، بحيث يصبح هذا المأخوذ جزءاً اصيلا من حياة القوم . فقد تمثلوا ، بالاضافة الى الحضارة العقلية البحتة ، ادبَ الاقوام التي اتصلوا بها ، لكنهم فرضوا هذا الادب الجديد بلغتهم ، وبروحهم . فكانوا في تمثلهم متغلبين .

اما القيم الروحية التي تستحق الاهتمام في تاريخ العرب فسبيل ادراكها فهم الاسلام فهما صحيحاً من حيث انه يقدم لاتباعه مثالية قلما تجارى ، بينما هو يحتفظ بهم في صميم الحياة الواقعية . فهو لا يطلب من الاتباع ان يعرضوا عن الدنيا املا في الحصول على الآخرة . وانما يمكنهم من

ان يكونوا فاضلين في هذه الحياة ، جادين عاملين مثمرين منتجين فيها ، وبذلك يستطيعون ان ينالوا خيراً فيما بعد .

وكيف السبيل الى التعرف الى هـذا التاريخ تعرفاً صحيحاً ؟

يصح ان نشير هنا الى الخطوط الاساسية لموضوع يستغرق بحثه مجلداً بكامله . ولذلك فأننا نكتفي بالاشارة الى الخطوات التي يصح ان تتبع .

والخطوة الاولى في رأينا هي ان تتوفر جماعة منا – من العرب – على نبش هذه الذخائر من آثار الفكر العربي التي لا تزال مجهولة . فقد آن لنا ان نتوفر على ذلك بانفسنا ، بعد ان ظلت هـذه الاعمال حكراً على المستعربين من رجال الغرب .

فاذا تم النبش ، لحقته الخطوة الثانية وهي مقابلة النسخ المختلفة ، ان وجدت ، للوثيقة الواحدة او الكتاب الواحد لنخرج من ذلك بنص مقبول صحيح . وبعد ذلك تأتي الخطوة الثالثة وهي نشر هذا النص الصحيح نشراً علمياً مدروساً من جميع النواحي .

وهذه الاعمال كلها ليست مما يقوم بـه الافراد . فهي اعمال تتطلب جهودا كبيرة ، ونفقات كثيرة . وهذا عمل الحكومات والهيئات العلمية التي تدعمها الحكومات ماديا ، وتيسر لها ما تعجز عنه من مال .

وهذا كله سيجعل كنوزنا الفكرية وذخائرنا الادبيـة

التاريخية في متناول الباحثين وطلاب العلم والاساتذة . ولكن نحن بحاجة الى ان نتوجه بخلاصة ذلك كله الى العرب في كل مكان ، والى كل فرد منهم . والعرب منهم فريق يشعر بقوميته دون ان يعرف سبب ذلك . فيجب ان يقدم اليه ما يوضح الاسباب . ومنهم من يعرف عروبته ، لكنه ضعيف الشعور بقيمتها الروحية . فيجب ان يزودوا بما يذكي فيهم الشعور . وثمة من يعرف ويشعر ، ولكنه لا يستطيع ان ينقل معرفته وشعوره . فيجب ان توضع بين يديه الوسائل والاسباب التي تمكنه من نقل المعرفة والشعور الى غيره بتحسين اسلوب التعبير عنده .

وكل اولئك يمكن ان نقدم لهم هذه الذخائر والكنوز على سبيلين . الأول ان يتقدم البعض ممن يشتغلون بالامور التاريخية الى القراء بدراسات مقتضبة قصيرة مغربلة مركزة . وانا الح في ان تتصف هذه الدراسات بهذه الصفات جميعها . فهي يجب ان تكون مقتضبة حتى لا تضني قارئها الذي لم يعتد بعد القراءة الجدية الطويلة . ويجب ان تكون قصيرة ليكون بامكان اكبر عدد ممكن شراؤها - فالقصر يقلل النفقات . ويجب ان تكون مغربلة بحيث تخلو من كثير من الزوان الفكري الذي يضعف المعدة العقلية . ومن الخير ان تكون مركزة حول نقطة معينة كي تتضح الفكرة للقارىء ، بحيث يتمكن من ضمها الى غيرها ، ليتكون لديه سلسلة من هذه الافكار والاراء التي تكوّن تفكيره

القومي العربي الناضج .

اما السبيل الثاني فهو ان نعرض على القراء هذه الكنوز نفسها ، بشكلها الاصلي ، ولكن بثوب انيق شيق جذاب ، بعد ان يخرج منها ما فيها من الغث ، ويحتفظ بما فيها من السمين . فالقـــارىء العادي ، مثلا ، لا يقبل على شراء « عيون الاخبار » لابن قتيبة او قراءته ، وهو في اربعة مجلدات . ولكن يمكن ان تقدم له مجموعة من الكتب ، تحوي مختـارات من العيون ، في طبع انيق ، وشكل جذاب ، بحيث لا يرى صعوبة في شرائها ، ولا يجد قراءتها عملا جباراً . ولست تنتظر من قارىء ان يعكف عـلى مجلدات « صبح الاعشى » الاربعة عشر يعب منها ، ولكنك لا تستغرب ان انت قدمت له مختـارات من بعض نواحي الكتاب ، مثل الفصل الخاص بالبريد ، او بابراج الحمام ، ان يقرأ هـذه المختارات . ومثل ذلك يقال عن الكتب الاخرى التي تبلغ المئات عدداً . وقد عرفت بالاختبار الشخصي انـه من الممكن ان يكتب تاريخ للعرب يؤخذ كله من المصادر الاصلية فقرات او فصولا كاملة ، بعـد ان تحذف من هذه المصادر عنعناتها ورواياتها المختلفة ، وبعد ان تشرح هذه المختارات شرحاً سهلا هينا [1] .

فاذا تم للقارىء ان يحصل على ذلك عرف من تاريخه ما يعيد الى نفسه الثقة بمـــاضيه ، فيدفعه ذلك الى الثقة بمستقبله .

(١) راجع مثلا كتاب المؤلف « وثبة العرب » .

اقول الثقة بمستقبله ، لان هـذا هو الذي يحتاجه العالم العربي اليوم . فنحن نعيش في حاضر دون ماضينا بكثير . حاضر فيه الكثير من الظلام ، وفيه الكثير من التعثر ، وفيه الكثير من الخوف : الخوف النفسي الروحي ، لا الخوف المادي .

نحن نعيش في عالم تقع فيـــه الكارثة الواحدة على رؤوسنا تلو الاخرى . فهذه فلسطين نفشل في معالجـــة قضيتها ، ونخسرها لاننا مضطربون روحياً ، لا لاننا ضعفاء مادياً . وضعفنا المادي بعضه ، ان لم يكن كله ، ناشىء عن هذا القلق الروحي المستحوذ على حياتنا كافراد . وهذه الجامعة العربية ، وقد علقنا عليها آمالاً كباراً ، تكاد تخيب آمالنا لاننا لا نسندها قلباً وقالبـــاً . وسرّ من اسرار ذلك هو هذا القلق الروحي المستحوذ على نفوسنا افراداً وجماعات .

ولا سبيل الى ازالة هذا الخوف ، الا باعادة الثقة الى النفوس ، وتلمس السبيل السوي ، وتعرّف الصراط المستقيم . ولسنا ننكر ان حياتنا تحتاج الى نفض من اسسها في التفكير الاقتصادي ، والتنظيم العلمي والعقلي . لكننا معنيون الآن بالناحية الروحية النفسية . فنحن بحاجـة الى الوثوق بانفسنا افراداً ، لنثق بانفسنا جماعات ولتطمئن الجماعـــة الواحدة الى الجماعة الاخرى التي تعايشها وتساكنها وتقاسمها الوطن الواحد . وهذا كله نضع اسسه الاولى متى عرفنـا

تاريخنا وادركنا قيمنا ، وفهمنا ما لنا وما علينا .

وعندئذ نتقدم الى الاخذ من اختبارات غيرنا من امم الشرق والغرب ، ولكننا نأخذ منها ما يلائم شخصيةً لنا اكتملت ، وحياة لنا اتضحت ، ومعالم لمجتمعنا بانت . وفي هذه الحالة نستطيع ان نختار الطريق الذي نريد ؛ ونحن اليوم واقفون على مفترق طرق كثيرة ، ولكنه يكون عندها اختياراً مبنياً على تصميم ومعرفة ، لا اختياراً قائماً على استهواء ، او ايحاء من مصادر تبعد عن صميم حياتنا وعقليتنا وفكرنا .

وعندها نستطيع ان نخلص من حاضر قلق مظلم متعثر ، ونتطلع الى المستقبل بأمل .

نحو المستقبل

•

نحن امة . نحن أمـــة لاننا وحدة روحية : لنا بلاد نقطنها ، وتاريخ نرجع اليه ، ولغة حية نتكلمها وادب نستعذبه ، وذكريات نتغنى بهـــا ، وآمال مشتركة نصبو الى تحقيقها ، ومثل عليا متفقة نسعى اليها ، وقوة نبذلها في سبيل آمالنا ومثلنـا ، وإرادة تحملنا عـلى السير في سبيل الوصول الى ما نؤمل .

علينا ان نعنى بتاريخنا . وفهم هذا التاريخ يتطلب من كل واحد منا ان يفهم الاسلام فهما صحيحا ، لان الاسلام كان الدافـــع الاول والباعث الرئيسي الى توحيد العرب واخراجهم من جزيرتهم وانتشارهم في فضاء الله الواسع ليؤدوا رسالتهم نحو العالم كله . علينا ان نتقن لغتنا : واتقان هذه اللغة يقضي بان يُقبل كل واحد منا على القرآن الكريم فيفهمه فهما صحيحا . اما المسلم فله على ذلك أجره عند ربه واما الباقون فلهم عـلى ذلك أجرهم عند نفوسهم وعنـد ابنائهم الذين يربونهم عندئذ تربية عربية خالصة .

نحن أمة . وعلى هذا لنا الحق كل الحق في ان تكون

لنا على نفوسنا وفي بلادنا سيادة تامة ، ولنا الحق كل الحق في ان نقرر مصيرنا وشؤوننا على ضوء تاريخنا وعلى ضوء ما نقبسه من مدنية العالم الحاضر . وبذلك نتمكن من القيام بواجبنا نحو العالم الحر ، فنخدم الحضارة العالمية الحديثة على نحو ما خدمناها في سالف العصور .

واذا كانت الاحوال المحيطة بنا والظروف التي نعيش فيها تحول دون تحقيق هذا كله فليس لهذه الاحوال والظروف ان تنسينا اننا امة لنا حق في ذلك كله .

قال النبي العربي : « من رأى منكم منكراً فليقوّمه بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » .

فهل لي ان ادعو ابناء قومي وبني أمتي الى أضعف الايمان !

فهرست

المقدمة	٥
من أعماق التاريخ	٩
الدولة والقومية : « انكلترة وفرنسة »	٢٢
القومية والدولة في القرن التاسع : « المانية وايطالية »	٣٤
الفكرة القومية في تركية الحديثة	٥٠
مقومات الأمة	٥٦
العروبة	٦٨
درس التاريخ	٨٢
نحو المستقبل	٩٣

للمؤلف

•

رواد الشرق العربي في العصور الوسطى	القاهرة ١٩٤٣
وثبة العرب	القدس ١٩٤٥
العالم القديم (جزءان)	يافا ١٩٤٥ ١٩٤٧
صور من التاريخ العربي	القاهرة ١٩٤٦
شخصيات عربية تاريخية	يافا ١٩٤٦
صور اوربية	القدس ١٩٤٧
عالم العصور الوسطى في اوربة	القدس ١٩٤٧
برقة ، الدولة العربية الثامنة	بيروت ١٩٥٠

٥٠/٤/١٢٠

ق. ل.

مرآة الضمير الحديث	للدكتور طه حسين بك	٢٠٠
روح الحضارة العربية	للدكتور عبد الرحمن بدوي	٢٠٠
معنى النكبة	للدكتور قسطنطين زريق	١٠٠
بعد النكبة	للاستاذ قدري حافظ طوقان	١٠٠
غيوم عربية	للدكتور نبيه فارس	١٠٠
يوميات هالة	للسيدة سلمى الحفار	٣٠٠
سامبا [شعر]	للاستاذ نزار قباني	٥٠
فلسفة ابن سينا	للمستشرقة جواشون	٢٠٠
برقة : الدولة العربية الثامنة	للاستاذ نقولا زيادة	١٥٠

تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان :

١ ـ العرب والامبراطورية العربية	٣٠٠
٢ ـ الامبراطورية الاسلامية وانحلالها	٤٠٠
٣ ـ الاتراك العثمانيون وحضارتهم	٣٠٠
٤ ـ الاسلام في القرن التاسع عشر	٣٠٠
٥ ـ الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الاولى	٣٠٠

الثمن ١٠٠ قرش لبناني او ما يعادلها . مطابع دار الكشاف ـ بيروت

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 071970667
(NEC)
DS63
.6
.Z533
1950